
الرَّبِيعُ الْعَرَبِي
تفريغ سلسلة
سقوط الحضارة الغربية
للشيخ أبي عبدالله المهاجر
- حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

[سقوط الحضارة الغربية]

الشيخ / أبي عبد الله المهاجر (حفظه الله)

مُؤَسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

مقدمة التفريغ:-

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد بن عبد الله، أما بعد:
فيسرنا في مؤسسة التحايا للإعلام أن نقدم لكم هذا التفريغ لسلسلة (سقوط الحضارة الغربية) للشيخ أبي عبد الله المهاجر المصري عبد الرحمن العلي، والدروة تتكون من ستة ملفات مدتها حوالي ستة ساعات، وهي جزء من دورة حول السيرة النبوية على صاحبها أتم الصلاة والتسليم، حوت هذه الدروة بعض المقدمات للسيرة ثم ابتدأ الشيخ في السيرة النبوية في المولد والنسب حيث ينقطع التسجيل.
والشيخ غني عن التعريف؛ هو من علماء الثغور ومن كبار علماء التيار الجهادي، جاهد في الجهاد الأفغاني الأول، ثم بعد الفتنة بين الأحزاب الأفغانية توجّه نحو باكستان لطلب العلم فدرس في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، وحصل على الماجستير في الشريعة ولكنه لم يتمكن من إكمال الدكتوراة بسبب مطاردة السلطات الباكستانية له، فتوجّه نحو أفغانستان، وهناك افتتح معهدًا شرعيًا في خوست في معسكر خلدن الذي كان يقوده ابن الشيخ الليبي، وأصبح المسؤول الشرعي للمعسكر، ثم درّس في المعهد الشرعي الذي افتتحه الشيخ الإمام أسامة بن لادن –تقبله الله– في قندهار والذي كان يديره الشيخ أبو حفص الموريتاني، واستفاد منه الشيخ الزرقاوي علميًا وكذلك استقدمه في تنظيم دورات علمية في معسكره في هيرات.

يقول الشيخ الشهيد أبو مصعب الزرقاوي تقبله الله: "التقيت بالشيخ أبي عبد الله المهاجر، وجرى حديث بيننا في حكم العمليات الاستشهادية، وكان الشيخ يذهب إلى جوازها، وقرأت له بحثًا نفيسًا في هذه المسألة، وسمعت له أشرطة مسجلة في ذلك، فشرح الله صدري لما ذهب إليه، ولم أتبنَّ جوازها فقط؛ بل بتُّ أرى استحبابها، وهذا والله من بركة العلم ولقاء أهله".

ويقول الشيخ محمد وائل حلواني (ميسرة الغريب) عضو اللجنة الشرعية لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين آنذاك في رسالته «الزرقاوي كما عرفته»: "كان شيخنا الزرقاوي يُحب شيخه أبا عبد الله المهاجر، ويُجِلُّه ويثني عليه، ويَوَدُّ لو يأتي إلى العراق، وكانت قرائنُ الحال تَدُلُّ أنه لو أتى لأوكلت إليه مسؤولية الهيئة الشرعية، وذكر لي أنه درس عند الشيخ المهاجر أربع سنوات".

وكذلك ممن زكاه الشيخ المجاهد الدكتور أيمن الظواهري –حفظه الله– إذا يقول في كتابه (التبرئة) وهو يعدد علماء المجاهدين: "الشيخ أبو عبد الله المهاجر. من المهاجرين المرابطين المجاهدين. تخرّج من الجامعة الإسلامية في إسلام آباد، ورابط في أفغانستان، وأنشأ مركزًا علميًا دعويًا في معسكر خلدن، ودرس في مركز تعليم اللغة العربية في قندهار، ثم بين المجاهدين في كابل ثم في هيرات، وله كتاب عن مسائل الإيمان، لا يحضرني اسمه."

بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م دخل الشيخ إيران مع من دخل حيث قدّر الله أن تعتقله السلطان الإيرانية، والشيخ هو صاحب كتاب (مسائل من فقه الجهاد) وكتاب (أعلام السنة المنشورة في صفات الطائفة المنصورة) وهما سِفران ضخمان، ورغم مكانة الشيخ العلمية الكبيرة إلّا أن مؤلفاته قليلة، ولكن كان له نشاط في التدريس وتنظيم الدورات العلمية وهو ما يجعل لتفريغ دروس الشيخ وسلاسله العلمية أهمية كبيرة.

سياسة التفريغ:-

انتهجنا في هذا التفريغ سياسة التصرف اليسير في التفريغ بدون الإخلال بالمعنى؛ كحذف كلام غير واضح أو كلام مكرر، أو تغيير صياغة جملة، وكذلك قمنا بفصل شرح الشيخ عن الكلام المنقول عن الكتب والمصادر، وحذفنا بعض الكلام الذي لا يستقيم في أسلوب الكتابة، كما قمنا بإضافة عنوانين جانبية وفهرس لتسهيل التصفح. وبهذا نكون قد فرغنا ثلاث دورات للشيخ أبي عبد الله حفظه الله؛ (الحاكمية)، (مقدمة في الولاء والبراء)، (سقوط الحضارة الغربية). يسّر الله إتمام بقية الدورات.

الدرس الأول: مراجعة ما سبق من دروس السيرة النبويّة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونسترضيه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[١].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[٢].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[٣]، أما بعد:

نستأنف اليوم -إن شاء الله- ما كنّا بدأناه من دروس السيرة النبوية الشريفة، وهذا الذي كنا بدأنا هو -على التحقيق- مقدمة تكلمنا فيها عن الهدف من هذه الدراسة، فكتب السيرة النبوية كثيرة تَعجُّ بها الأسواق وتمتلئ بها المكاتب، ما بين مبسوط ومختصر، إلّا أنّنا أردنا أن نُركّزَ على معانٍ هُجرت في كثير من الأحيان، فالنّاظر إلى واقع المسلمين اليوم يرى أنهم يتعاملون مع سيرة نبيهم ﷺ بصورة ميّتة لا حياة فيها ولا روح إلا من رحم ربي.

فالسيرة تُعرض عند الناس -بالفعل كما قال أحد الدعاة- تُعرض في أكفان الموتى، تُعرض ولا يتَرتّب على هذا العرض إلا بعض الجُمل التي يُعبِّر فيها الناس عن تعظيمهم لهذا النبي الأمين ﷺ، والناظر لهذا التعظيم يرى بوضوح أنه تعظيم موروث، ليس عن يقين، وليس عن صدق في الاتّباع؛ تعظيم يتوارثه الأبناء عن الآباء وهكذا، ويصحّ أن نسمّيه تعظيم الهوية أو البطاقة الإسلامية ليس إلا.

---

[١] سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

[٢] سورة النساء، الآية: ١.

[٣] سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

كذلك هو تعظيم سلبي لا يترتّب عليه تغيير في واقع هذا المُعظِّم، فهي عندهم -إلا من رحم ربي- عبارة عن مجموعة عن القَصص، تختلف عن سائر القصص إلّا أنّها تتَّفق معها في النتيجة، وهذا فيه ما فيه من الإجحاف بسيرة سيد الخلق ﷺ، فضلًا عن ما فيه من قدحٍ في الإيمان، ولذلك أردنا من عرضنا لسيرة الحبيب المُصطفى ﷺ أن تكون دراسة ينبني عليها تقوية للإيمان، وإثارة للهمم، وتحفيز للنفوس، وسعي لاقتفاء آثار المصطفى ﷺ في السعي لهذه الأمّة لتتبوأ مكان القيادة والريادة الذي نُحِّيت عنه، ولذلك أسميناها (نظرات منهجيّة في السيرة النبويّة)، فهي تقوم على مبدأ العرض والتحليل ثمّ الاستنباط ومحاولة الخروج بأكبر قدر ممكن من العِبَر والحِكَم والفوائد العمليّة وليس النظرية.

شمول السيرة النبويّة:

وقلنا كذلك أنّ سيرة المُصطفى ﷺ غنيّة في مضمونها، مُستوعِبَة لكافّة ألوان النشاط البشري، مما لا نجده في غيرها من السِّيَر؛ سواء في سير الأنبياء والمرسلين أو حتى في سير العظماء والقادة الذين يتخذهم فئام كثيرون من الناس -ومنهم المنتسبون للإسلام- أعلامًا وهداة وأئمة.

وقلنا أنّ هذا مبنيّ على أن حياته -عليه الصلاة والسلام- حُفِظت لنا على أتمّ ما يكون الحفظ، فكلّ قولٍ وكل فعلٍ بل وكل وصفٍ بل وكل تقريرٍ عن حياة هذا الرسول الخاتم ﷺ؛ حُفظت لنا، وهذه بحد ذاتها مُعجزة وعَلَمٌ من أعلام نبوّته ﷺ، وهذا الأمر لم ولن يحدث مع أي أحد في تاريخ البشرية قاطبة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، حتى مع الأنبياء وحتى مع أولي العزم من الرسل.

ضوابط استنباط الأحكام الشرعيّة من أحداث السيرة:

وقلنا أنّنا بالإضافة إلى منهج العرض والتحليل؛ سوف نلجأ أحيانًا إلى استنباط بعض الأحكام من بعض وقائع السيرة النبويّة، وتكلمنا في هذه الجزئية وذكرنا تنبيهًا هامًا؛ وهو أن كثيرًا من المتكلمين في السيرة النبويّة -خاصّة عند

المعاصرين– بنوا كثيرًا من الأحكام غاية في الأهميّة اعتمادًا منهم على بعض وقائع السيرة، إلّا أنهم في بنائهم لهذه الأحكام وفي استنباطهم لها من وقائع السيرة؛ لم يراعوا الفرق بين السيرة كمصدر من مصادر الأحكام وبين سائر المصادر الأخرى المعتبرة عند أهل العلم، كالكتاب والسنة والإجماع ثمّ القياس، ثمّ المصادر المُختلف فيها..

فلم ينظروا –على سبيل المثال– إلى أن هذه الواقعة –محلّ الاستنباط– صحيحة الإسناد إلى النبي ﷺ، سواء كان من قوله أو فعله أو تقريره، ولا يخفى عليكم أنّ كثيرًا من وقائع السيرة مُنقطعة الإسناد عن النبي ﷺ، كذلك أكثرها مُرسل، نعم يَسلم لنا ولله الحمد الشيء الكثير، ولكن الذي يأتي ليستنبط حكمًا ما لا بد عليه أولًا أن يتأكد من صحة الإسناد واتّصاله بالنبي ﷺ، وهذا هو الذي لم يحدث من هؤلاء الخبراء من دعاة عصرنا.

النقطة الثانية: أنهم لم ينظروا إلى منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال، وخاصّة ذلك المنهج الذي وضّحه أهل المفهوم، فالواقعة وإن سُلِّم بصحة إسنادها قد يكون دخللها التخصيص، أو دخلها التقييد، أو دخلها النسخ، إلى غير ذلك من وجوه الأدلّة الموجودة في مظانّها عند الأصوليين، فيأتي مَنْ يأتي ويأخذ الواقعة ولا ينظر لهذه الضوابط، ثم يستنبط منها حكمًا ما، ثمّ يريد أن يُخضِع الناس لهذا الحكم ويجعله هو الحق الذي لا حقّ غير، فهذا فيه خلل عظيم، وسيأتي معنا –إن شاء الله– عند شروعنا في أحداث السيرة نماذج كثيرة من هذا الفعل، وسوف ترون مدى الخلل العظيم الذي وَقَعَ فيه هَؤُلَاء الفُضَلَاء.

أمر آخر يتعلق بمنهج الاستدلال من السيرة؛ أنهم عَمَدُوا إلى بعض الوقائع وبتروها عن سياقها العام، هذه الواقعة لا تُفهم فهمًا صحيحًا إلا إذا وُضعت في سياقها العام، في سياق السيرة والأحداث المتكاملة، فيأتي من يأتي ويجرّدها ويفصلها عن سائر الأحداث؛ فتصبح متجرّدة عن السياق، وبالطبع الحكم الذي يبنى على هذا يكون فيه خلل كبير.

فقد تكون الواقعة قد جاءت على سبيل الاستثناء؛ فيجعلها هو القاعدة والأصل، وشتّان بين الأصل وبين الاستثناء، وقد تكون الواقعة قد جاءت على سبيل الضرورة فيجعلها هو الحكم العالم الكلّي، وقد تكون الواقعة جاءت على سبيل الرخصة فيجعلها هو على سبيل العزيمة، ممّا أوقع الكثير في الاضطراب وفي التناقض فضلًا عن الخطأ والخلل، وكما قلنا سوف نضرب أمثلة كثيرة عند حديثنا التفصيلي عن واقع السيرة.

المهم أن عملية استنباط الأحكام لها ضوابط تقيدها، ومصادر الأحكام معروفة عند أهل العلم في القديم الحديث؛ فالأحكام تُبنى أولًا على كتاب الله ثم على سنة نبيه ﷺ ثم على الإجماع ثم على القياس، وهناك مصادر أخرى مختلف فيها عند أهل العلم كالاستصحاب والاستحسان وقول الصحابي إلى غير ذلك.

مصادر السيرة النبويّة:

ثم تكلمنا بعد ذلك عن مصادر السيرة النبويّة، وقلنا أنّ من أهمّ مصادر السيرة النبويّة ومن أوثقها وأصحّها القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكثير من الناس لا يعرفون أن القرآن الكريم قد احتوى على جمل وفيرة من سيرة المصطفى ﷺ، وفصّلنا وذكرنا كثيرًا من الأمثلة وقتها.

كذلك من مصادر السيرة كتب الأحاديث، وما صحّ في كتب الحديث -على اختلاف مراتبها- يكفي للخروج بصورة متكاملة عن حياته ﷺ، ففي الصحيح غنًا وشفاء وكفاية عن الضعيف، فضلًا عن ما لا يصح عنه ﷺ.

كذلك من مصادر السيرة النبويّة الكتب التي أُفردت في هذا الموضوع، سواء استقلالًا أو بالتبعية، فالكتب التي أُفردت استقلالًا هي كتب المغازي والسير، ومن أشهرها بل هو على الحقيق عُمدتها (مغازي ابن اسحق) المتوفَّى سنة ١٥٢هـ، وهو من أقران الإمام مالك رحمهما الله، والتي هذّبها ولخّصها (أبو محمد عبد الملك) المعروف والمشهور بين الناس بـ(ابن هشام)، وسيرته هي السيرة المتداولة بين الناس اليوم.

ومن الكتب التي تكلمت في السيرة بالتبعيّة كتب التاريخ الإسلامي، ومن أشهرها (طبقات ابن سعد)، و(تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبري و(البداية والنهاية) لابن كثير ونحوها. ومن كتب المتأخرين (الروض الأنف) للإمام السهيلي والذي شرح فيه كتاب (سيرة ابن هشام)، إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة التي تكلّمت عن سيرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

كذلك هناك كتب تعرف باسم (دلائل النبوة) أو (الدلائل)؛ كذلك تكلمت عن سيرته ﷺ، ومن أشهرها (دلائل النبوة) للبيهقي، (دلائل النبوة) للأصفهاني وغير ذلك.

وكذلك كتب (الشمائل)؛ ومن أشهرها (الشمائل النبويّة) للترمذي و(الشِّفا) للقاضي عياض رحمهم الله.

مذاهب الباحثين المعاصرين في السيرة النبويّة:

وهناك مسألة لا بد من التنبيه عليها، وهي مذاهب الباحثين الذين صنّفوا في السيرة النبويّة في العصر الحديث؛ الباحث فيما كُتِبَ في عصرنا الحاضر عن سيرته ﷺ يجد أنّ هناك مدرستين؛ كلٌ منها أخطأت الطريق في الحديث عن سيرته ﷺ على ما بينهما من فرق.

المدرسة الأولى عمدت إلى الأسلوب القصصي أو الأسلوب الأسطوري؛ والذي يجرّد السيرة النبويّة من أهمّ مميزاتها؛ أنها سيرة نبي رسول من البشر، وهذه الطريقة من الخُبث بمكان؛ حيث عَمِد أصحابها -وهم من المتّهمين- إلى إبراز وعرض السيرة النبويّة وكأنّها لم توضع إلا للتسلية وإلّا لقطع الوقت، كما عبّر أحدهم في مقدّمة كتابه (على هامش السيرة) وهو طه حسين، وقال أنّي ما كتبت هذا الكتاب إلا لتمضية الوقت وللتسلية عن الناس. أما كونها سيرة يُقتدى بها ويُقتفى بآثارها فالرجل عمد إلى غير ذلك.

وهؤلاء الناس أرادوا على التحقيق أن يفصلوا بين الناس وببين نبيهم ﷺ، وأن يقطعوا ذلك الحبل حتى تنعدم في الناس روح التأسّي والاقتداء به ﷺ، وأرادوا أن يجعلوه كالمسيح عند النصارى أو كبوذا عند أتباعه؛ قريب من منزلة الألوهيّة، حتى إذا أراد الإنسان أن يفكّر بالاقتداء به حالوا بنيه وبين ذلك، فأنت مهما حاولت أن تفعل لن تصل إلى مرتبته وإلى درجته، وهذه -كما قلنا- فكرة خبيثة تهدف إلى تجريد السيرة من أهم مضموناتها.

ولذلك كانت المبالغة في الحكايات والقصص والتخيّلات والأوهام، حتى أنّها صارت أسطورة من الأساطير، لا تفترق في كثير أو قليل عن الأساطير الرومانيّة أو الأساطير الإغريقيّة، وهكذا عبّر طه حسين في مقدمته عندما قال:

"نحن لدينا ما لدى الإغريق ما لدى الرومان من الأساطير بل ربّما تضاهي أساطير اليونان والإغريق"، وهذا الذي أراده من كتابه في السيرة النبويّة، والحديث عن هذا الرجل يَطُول، وسيرد معنا بعضه عند الكلام عن بعض وقائع السيرة.

وعلى النقيض كانت هناك مدرسة أخرى، وهي التي جَنَحَت نحو النظرة الماديّة أو النظرة العقلانيّة؛ والتي تقتل في السيرة روحها، وتقطع بينها وبين السماء، والمدرسة (العصريّة) معروفة لديكم ولا تخفى عنكم، ومن أشهر هذه النماذج ما كتبه محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) ﷺ، فأنكر المعجزات وأوَّل ما صحّ منها، وحكم على كثير مما صحّ إسناده بالضعف، رغم أنهم لا ينتهجون منهج التحقيق والتثبّت إلّا إذا وافق أهواءهم.

فعلى سبيل المثال أوّلوا الطير الأبابيل -كما هو منقول عن الأفغاني وعن تلميذه محمّد عبده- بداء الجدري، وكذلك أوّلوا معجزة الإسراء والمعراج تلك المعجزة الثابتة عن النبي ﷺ؛ أوّلوها بسياحة العقل والرُؤى والمنامات، كذلك أوّلوا الملائكة التي أُنزلت -كما هو ثابت- تثبيتًا للمؤمنين يوم بدر؛ أوّلوها بالدعم المعنوي، إلى غير ذلك من الترّهات التي تدور حول تجريد السيرة من روحها والقطع بينها وبين أسباب السماء.

وإن شاء الله ستأتي معنا نماذج كثيرة عن كلا المدرستين. كذلك كان هناك اتّجاه آخر أو منهج آخر وقع فيه البعض؛ وهو عرض سيرة النبي -عليه الصلاة والسلام- بدون النظر إلى كونه نبيًا مرسلًا، فعُرِضت سيرته -عليه الصلاة والسلام- على أنّها سيرة زعيم وطني، أو سيرة اشتراكي ثوري كما قال أحدهم وكتب (محمد محرّر العبيد)، أو سيرة مصلح اجتماعي، وكل هذه الأوصاف هي حقّ إلّا أنها ليست الوصف الصحيح الذي يجب أن يَتَعَامل البشر من خلاله مع النبي ﷺ؛ وهو أنّه نبيّ مرسل.

أراد هؤلاء القوم ومعظمهم من اليساريّين الذي يتمسّحون بالإسلام إذا خدم مصالحهم؛ أرادوا أن يجرّدوا النبي ﷺ عن نبوّته، فالقوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا برسوله ﷺ.

إذًا الخالص الوحيد والصحيح الذي يجب أن تُعرض من خلاله سيرته ﷺ هو أنّه نبيّ مرسل، مع التفكّر في أنّه كذلك بشر.

العالم قبل البعثة الشريفة:

اليوم إن شاء الله تعالى نتكلم عن العالم قبل بعثته ﷺ، ونهدف من هذه التوطئة إلى التَّيقُّن بصدق نبوته -ﷺ، ونحن -إن شاء الله- على يقين ولكن ليزداد المؤمنون إيمانًا، كما ذكر ذلك الشيخ مصطفى السباعي في مقدمة كتابه عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في الصفحة عشرين.

فالناظر في واقع العالم قبل مبعثه ﷺ والحالة المزرية التي كان عليه الناس كافّة؛ يتيقن حقًّا وصدقًا أنه نبي مرسل من عند ربّه، فهذا التأييد لا يتأتّى إلا لنبي مرسل مؤيّد من السماء، فهو علم من أعلام نبوته.

كذلك نهدف إلى التصوّر كيف كان المعصوم ﷺ رحمةً مُهداة، هذه اللفظة يعرفها الجميع أنّ النبي -عليه الصلاة والسلام- بُعث رحمة للعالمين، ولكنّ الوقوف عند حقيقة هذا اللفظ يختلف بالفعل بين اثنين؛ بين رجل جاهل وبين رجل اطّلع على أحوال العالم قبل بعثته ﷺ وعرف يقينًا تلك الحالة المزريّة والارتكاسة في الفِطَر والنفوس التي وصل إليها الناس قاطبةً إلّا بقايا من أهل الكتاب، ثمّ رأى التغيير الذي حدث في العالم بأسره في مدة زمنية وجيزة أقل من عمر إنسان، ففي أقل من خمسين سنة تغيّر وجه الأرض تمامًا، انتقل الناس من ظلمات كالحة بعضها فوق بعض إلى نور ساطع أضاء ما بين المشرقين.

كذلك نهدف من عرضنا لأحوال العالم قبل مبعثه ﷺ؛ إلى أن نعرف مدى المسؤولية العظيمة الملقاة على أعقاب هذه الأمّة؛ الأمّة المحمّدية، مسؤولية تنوء بحملها الجبال الرواسي.

أولًا: الحالة الدينية قبل مبعثه ﷺ:

فنقول: كان الناس قبل البعثة النبوية يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة صمّاء، ولم يبقَ من أثر النبوّة والأنبياء والرسل السابقين في أقوامهم الذين أُرسلوا إليهم؛ لم يبقَ من هذه الآثار إلا ما يضاهي الرؤيا الجميلة التي تعرض للمرء في منامه وفي غفوته الطويلة، أو كومضة طرف تأتي وتختفي في ظلام ليل حالك.

وكان أتباع كافّة الأنبياء والمرسلين آحادًا في الناس ينقرضون بعد جيل أو جيلين، وما أن انتصف القرن السادس الميلادي حتى كانت ستارة الجاهلية قد غطّت العالم بأسره من الشرق إلى الغرب، وحتى سقت الوثنيّة الناس كؤوسها، وحتى تلك الديانات التي قامت في الأصل على التوحيد لم تسلم من الوثنيّة ومن عبادة الأصنام على اختلاف أشكالها ومسمّياتها.

فَسَادَ الشرك والإلحاد حتى تلك الديانات التي قامت على التوحيد في أصلها، وعمّ الفساد كل وادٍ وناس، ولم يجد الحنيفيّون –وهم قلّة قليلة– إلّا رؤوس وقمم الجبال يفرّون إليها بدينهم خوفًا من البطش والتنكيل الذي كان يطارد الموحّدين.

وتفنّن الناس على اختلاف أجناسهم في صناعة الأصنام والأوثان والآلهة الباطلة المزعومة من دون الله.

١– الديانة اليهودية:

فاليهودية مثلًا وهي ديانة توحيديّة في الأصل، أصبحت في تلك الفترة –خاصّة في القرن السادس– عبارة عن مجموعة من الطقوس والتقاليد التي لا روح فيها ولا حياة. وانحرف اليهود عن تلك السمة التي كانت تُميّزهم عن سائر الأمم والشعوب وهي سمة التوحيد؛ انحرفوا عنها إلى الشرك وعبادة الأصنام، وذلك تأثّرًا منهم بالبابليّين، ففي فترة الأَسْر البابلي أخذ اليهود من الفُرس، وقد اعترف بذلك مؤرّخو اليهود أنفسهم، وذكروا ذلك في دائرة المعارف اليهوديّة؛ أنّ اليهود لم يرجعوا من الأسر البابلي إلّا بعد أن تشبَّعوا بالروح الوثنيّة البابليّة.

أما عن كتبهم المقدّسة فقد دخلتها الوثنيّة وطغت عليها الجاهلية، فالتوراة حُرّفت، واعترف اليهود أنفسهم بهذا التحريف؛ كما جاء في دائرة المعارف اليهودية صفحة ٥٨٩، قالوا: "إنّ الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدّس التوراة كما تقول الأخبار اليهودية من تأليف النبي موسى.."، كبرت كلمةً تخرج من أفواههم؛ فموسى نبي الله بريء من هذا الانحراف، المهم والشاهد أنهم لم ينسبوها إلى الله تعالى.

ثم قالت الدائرة: "باستثناء ثماني آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى"، هذه الآيات الأخيرة لم يكتبها موسى كما قالوا، إذًا فمن الذي كتبها؟ الإجابة معروفة.

ثمّ قالوا: "وما زال الركسيّون [أي الأحبار والحاخامات] يهتمّون بالتناقضات والاختلافات التي وردت في هذه الصُّحف، وما زالوا يُصْلِحُونها بفطنتهم ولباقتهم"، هذا اعتراف صريح منهم بحصول التحريف في التوراة الكتاب المقدَّس الأوّل عندهم.

أمّا عن التلمود فحّدث ولا حرج، ونحن تحدّثنا من قبل عن اليهود عند حديثنا عن المنطلقات العقائديّة التي ينطلق منها أعداء هذا الدين، فالتلمود من أوّله إلى آخره من صنع هؤلاء الحاخامات والأحبار، والتلمود يطفح بالوثنية وبالتشبيه وبالتجسيم لله سبحانه وتعالى.

هذا بالإضافة إلى ما تتميّز به الديانة اليهوديّة من قوميّة، فهي ديانة سُلاليّة في سُلاسة بني إسرائيل، فهم يعتبرون الله –سبحانه وتعالى– إله قومي عنصري –ونحن أسلفنا الحديث في هذه المسألة–، ويرون أنّ الله خاصٌ بهم، وأنّ سائر الأمم والملوك والبشر لم يُخلقوا على هيئة بشر إلّا ليصلحوا لخدمة بني إسرائيل، وفصّلنا الحديث كذلك عن نظرة اليهود للأمم الأخرى.

هذا عن حالة اليهود قبل مبعثه ﷺ وما آلت إليه ديانتهم المُحرّفة.

٢– الديانة النصرانيّة:

أمّا عن المسيحيّة؛ فلم تكن أفضل حالًا من اليهودية، كيف وأصابع اليهوديّة هي التي كانت تتحكم في المسيحية منذ الأيّام الأولى من رفع عيسى –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم–، وتكلمنا في هذه المسألة بشيء من التفصيل من قبل، وشرحنا الدور الخطير الذي قام به (بولس الرسول) –كما يسمّونه– في تحريف المسيحيّة، وفي الخروج بها من ديانة توحيديّة إلى ديانة وثنيّة جاهليّة، لا تفترق عن وثنيّة الرومان والإغريق في قليل أو كثير.

إنّ اليهود استطاعوا أن يقوموا بأبشع عملية عُرفت في تاريخ البشرية في مجال التزوير والتحريف، حيث قام (بولس) وكان من أشد وألدّ أعداء المسيح وأتباعه؛ قام بعد تمثيلّية أحسن صنعها وروّجها على النصارى فادّعى أنّه أُوحي إليه من قِبل المسيح الإله، ومن هنا بدأ التحريف، فصار بولس المتحدث الرسمي باسم النصرانيّة وباسم المسيح، وأعطى لنفسه صلاحيات واسعة جدًا، تؤهّله إلى أن يحرّف فيها كيفما شاء، وبالفعل تمّ له ما أراد.

فكان بولس أوّل من قال بالتثليث، ثمّ قال بعد ذلك بألوهيّة عيسى –عليه السلام–، ثمّ قام بأخطر عمل في تاريخ النصرانيّة وهو الخروج بها من ديانة خاصة ببني إسرائيل إلى ديانة عالميّة، فخرج بها –كما قال– إلى طريق الأُمم، رغم أنّ المسيح –عليه السلام– كما هو مشهور في الإنجيل المُحَرَّف اليوم قال لهم: "إلى طريق الأمم لا تمضوا إنّما بُعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة"، والتوراة والإنجيل رغم التحريف الذي وقع فيهما إلا أن فيهما بقايا من حقّ باهت.

نقول بدأ من هنا خط انحراف النصرانية، وانتهى هذا الخط إلى تلك الصورة التي نراها اليوم؛ ديانة لا تختلف في قليل ولا في كثير عن الديانات الوثنية الجاهليّة القديمة.

ثمّ جاء (قسطنطين) الإمبراطور الروماني وأكمل تلك العمليّة، عندما دخل كذلك في النصرانية بتمثيلية مُضحكة، ثمّ فرض عقيدة التثليث بالقوّة على الكنائس النصرانية وقتئذٍ.

ثم جاء (هرقل) في القرن السادس وأكمل هذه اللعبة، في تلك الفترة كان هناك نزاع بين طائفتين من النصارى، الطائفة الأولى كانت تشمل نصارى الشام والعراق، وهم الذين عُرفوا بأتباع المذهب "المِلْكَانِي"، هذا المذهب كان يتبنّى القول بازدواجيّة طبيعة المسيح –عليه السلام– وأنّه صاحب طبيعتين؛ طبيعية إنسانيّة هي ناسوت وطبيعية إلهيّة هي اللاهوت.

والطائفة الثانية كانت تتضمن نصارى مصر القِبْط، وكان أصحاب هذا المذهب الذي عُرف بـ"المانوسيكي"، يقولون أن طبيعة المسيح طبيعة واحدة، وأنه بشر وليس إله، وحدثت بين الطائفتين حروبٌ طاحنة استمرت فترة طويلة إلى أن جاء هرقل ونصر بقوّة الدولة المذهب الأوّل القائل بالطبيعتين؛ الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، أي

اجتماع الناسوت باللاهوت، وبالطبع أُجبر سائر النصارى على الخضوع لهذا المذهب بالحديد والنار، وتمّ له ما أراد بعد فترة زمنية طويلة من الحروب الطاحنة بين الطرفين.

كذلك من الانحرافات في تاريخ النصرانيّة تلك الأناجيل المُحرَّفة التي ما أنزل الله بها من سلطان، والأعجب أن دوائر المعارف النصرانيّة تعترف أنه ليس هناك علاقية بين تلك الأناجيل وعيسى –عليه السلام–، بل تُقرّ أن كاتبي تلك الأناجيل غير معروفين، وأن تلك الأسماء المتداولة لا يُعرف من هم أصاحبها على وجه التحقيق.

ونحن من قبل نقلنا لكم من قبل شهادات بعض كبار الفكر النصراني المعاصرين، ومن أشهرهم (وِل ديورَانت) صاحب كتاب (قصة الحضارة)؛ بأن الديانة النصرانية في صورتها الأخيرة صارت تجنح نحو الوثنيّة الإغريقية والوثنيّة الرومانية.

٣– أديان الفارسيّة الوثنية قبل البعثة:

كذلك في تلك الفترة قبل مبعثه ﷺ كانت هناك أديان أخرى من أشهرها المجوسيّة، وكان المجوس يحتلّون قطاعًا كبيرًا من العالم، وكانوا يتقاسمون النفوذ السياسي في ذلك الوقت مع الرومان، وكانت العبادة الشائعة والمنتشرة لديهم هي عبادة النيران، وبالفعل انتشرت في تلك الفترة بيوت ومعابد النيران، وكانت لتلك العبادة آداب وتقاليد تميّزها عن غيرها من النيران.

وبالإضافة لعبادة النيران كانت هناك عبادة أخرى عند الفرس، منها عبادة الإله (مِذّا)، و(مذّا) هو أشهر الآلهة الإيرانيّة، وحتى الآن يحتفلون بأعياد تُنسب لهذا الإله اليوم، ويقولون أن (مذّا) هذا أرسل للبشر رسلًا، ومن هؤلاء الرسل (زرادشت) الذي بَنَى دينه المزعوم على أنّ هذا العالم يتقاسمه إلهان، إله للنور وإله للظلمة.

وبعد (زرادشت) جاء رسول آخر يدعى (ماني)، وقرّر ماني نفس عقيدة سابقه إلا أنه افترق عنه وخالفه في أنّه كان يقول بأن إله الظلام قديم وليس مُحدَث، زرادشت كان يقول أن للعالم إلهين إلّا أن إله الظلام مُحْدَث وإله النور

قَدِيم، فجاء ماني وقرّر أن كلا الإلهين قديم وأن إله الظلام ليس بمحدث. وكلّها عقائد باطلة ما أنزل الله بها من سلطان.

كذلك أخذ ماني كثيرًا من العقائد والعادات والتقاليد النصرانيّة؛ فقال كذلك بعقيدة التثليث، وقال بتقسيمة تشبه تمامًا التقسيمة الموجودة عند النصارى اليوم، فقال أنّ الإله مزيج مركّب من العظيم الأول والرجل القديم وأمّ الحياة، ووجدت هذه النظريّة طريقها عند المسلمين عن طريق هؤلاء الذين سُمّوا بفلاسفة الإسلام والإسلام منهم بريء، فوضعوا نظريّة عرفت بنظريّة (العقل الفعّال)، وهي تمامًا مثل النظريّة الموجودة عند ماني وعند النصارى من قبله.

كذلك من العقائد التي قال بها ماني ونشرها بين أتباعه عقيدة التناسخ، وأنّ الروح تنتقل من حالة إلى أخرى ومن صورة إلى أخرى.

٤– الديانة الهنديّة قبل البعثة:

كذلك من تلك الديانات التي كانت موجودة في تلك الفترة الديانة البوذيّة، وبوذا كان في أصله مُصلحًا اجتماعيًا، وبعد وفاته جنح أتباعه نحو الوثنيّة، فصنعوا له تماثيل كثيرة، وبنوا له معابد شركيّة.

وهنا نكتة أشار إليها بعض من كتبَ في تاريخ الديانات والفِرَق والنِّحَل؛ أنّ هناك تشابهًا عجيبًا يكاد يصل إلى حدّ التطابق بين شخصيّة عيسى –عليه السلام– عند النصرانيّة المحرّفة وبين شخصيّة بوذا عند أتباعه، فالذي يقرأ ما كتبه النصارى المحرّفين عن عيسى –عليه السلام– لا يجد فرقًا بينه وبين ما كُتب عن بوذا عند أتباعه.

كذلك من تلك الديانات التي كانت سائدة في تلك الفترة هي الديانة "البراهمانية"، وهي ديانة الهند، وسادت كذلك في مناطق كثيرة من آسيا الوسطى، وتقوم هذه الديانة أنّ هناك إله عظيم هو (براهما)، وهذا الإله هو الذي خلق العالم وكَوَّنَ الكون.

وتقوم هذه الديانة على الطبقيّة والعنصريّة، فيقول أتباعها أنّهم مُقَسَّمون إلى طبقات:

- الطبقة العليا هي طبقة البراهمة وهم الذي خُلقوا من رأس الإله.

- ثم طبقة الجند وهم الذين خُلقوا من أكتاف الإله.

- طبقة الزرّاع والتجّار وهم الذي خُلقوا من ركبتي الإله.

- طبقة الخدم والرقيق وهم الذين خُلقوا من أقدام الإله.

- ثمّ قالوا: ودون هذه الطبقات طبقة وهي طبقة أولاد الزنا أو المحرومين.

والهنود يسمّون غيرهم بالأنجاس، الذي ليس لهم إله أو الذين لم يخلقهم الإله، ونحن ننقل كلامهم حتى نعرف الحالة التي وصل إليه الناس في تلك الفترة، من استعبادهم لبعضهم البعض، ومن تلك الطبقية والعنصريّة التي كانت تتحكم فيهم من منظور ديني وعقائدي؛ جاء في قانونهم:

"من سعادة شودر [أي الطبقة المحرومة الذين خُلقوا من قدمي الإله] أن يقوموا بخدمة البراهمة [أي الطبقة العليا الذين خُلقوا من رأس الإله] وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك. وليس لهم أن يقتنوا مالًا أو يدّخروا كنزًا فإن ذلك يؤذي البراهمة، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهميّ يدًا أو عصًا ليبطش به قُطعت يده، وإذا رفسه في غضب قُطعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميًا فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلّمه سقي زيتًا فائرًا، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء" ، فانظر كيف ساووا بين[4] تلك الحيوانات وبين البشر!.

وكذلك تميّزت الهند بتعدّد الآلهة وتعدّد المعبودات، حتّى أنّه ذُكِر رقم خيالي عن عدد الآلهة التي كانت تُعبد فقط في القرن السادس قبل مبعثه ﷺ بقليل، وجاء هذا الرقم في دائرة المعارف البريطانية، ونقله الشيخ الندوي في كتابه

[4] هذه النصوص هي من قانون الهندوس الكفري الجائر المعروف باسم (منوشاستر).

(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وفي كتابه (السيرة النبويّة)، أنه قد بلغ عدد الآلهة المعبودة في الهند وحدها قبل مبعثه –ﷺ– بقليل ثلاث مائة وثلاثون مليون إله" اهـ.[٥]

عدد خيالي جدًا، وهو في دولة واحدة ٣٣٠ مليون إله، ولك أن تتصور أصناف وأسماء هذه الآلهة؛ عبدوا كلّ شيء، الحجر والبشر والبقر والحيوانات، حتى أنهم عبدوا الأعضاء التناسليّة –كما ذكر ذلك الشيخ الندوي– وعبد الرجال النساء العراة، وعبدت النساء الرجال العراة!.

فبالفعل كان العالم في تلك الفترة كما رأينا من اليهودية المحرّفة ومن النصرانيّة المحرّفة ومن المجوسيّة ومن ديانات الهند؛ كان العالم يغوص حتى آذانه في الجاهليّة والوثنية، على خلاف صور الآلهة المعبودة من حجر إلى شجر إلى بقر إلى حيوانات إلى آخره. بل كانت تلك الديانات المزعومة تتطابق في الوصول إلى الغاية من الوثنيّة والجاهليّة، وكان الناس يتفنّنون في صنع الأصنام والأوثان.

ثانيًا: الحالة السياسية قبل بعثه ﷺ:

هذا عن الحالة الدينية أمّا عن الحالة السياسية فنوجز ونقول: أنّ العالم في تلك الفترة كانت تتنازعه وتتقاسمه قوّتان؛ القوّة الأولى هي قوّة الرومان، والقوة الثانية هي قوة الفرس، فالإمبراطورية الرومانيّة كان يحكمها القياصرة، وكان يتميّز حكم القياصرة بالظلم والتجبّر والطغيان، وبالطبع ادّعاء الألوهية عند هؤلاء الحكّام. وكذلك بالسباق المحموم حول التمتّع بالدنيا وملذّاتها، والتسابق كذلك في تحصيل الأموال من طرق شتّى وبوسائل متعددّة.

ونتيجة لذلك قامت عدّة ثورات وعدّة اضطرابات، وكان الناس في كثير من الأحيان يُفَضّلون الحكم الأجنبي على حكم الرمان، حتى أنّه حدثت ثورة في عاصمة الإمبراطورية الرومانية (القسطنطينيّة) سنة ٥٣٢م في عهد الإمبراطور جيستن الأوّل، في هذه الثورة قُتل ٣٠ ألف شخص.

---

[٥] يقول الشيخ الندوي في هامش كتابه (السيرة النبوية) عن هذه المعلومة صـ ٦٥: "راجع «الهند القديمة» لمؤلفه «آر، سي، دت» ج ٣؛ ص ٢٧٦، و «الهندوكية السائدة» لمؤلفه L.S.S.OMalley ،ص ٦– ٧".

يصف لنا أحد المفكّرين النصارى، وهو كاتب أمريكي يدعى (درابر)، يصف لنا الحالة التي وصل إليه الرومان من البذخ والترف والتنعّم بملذّات الدنيا ومن حبّهم البغيض للشهوات، ذكر ذلك الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) صفحة ١٦٥، يقول ذلك الكاتب الأمريكي:

"بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتارًا، وكان مبدؤهم. أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصّعةً بالجواهر، ويحفُّ بهم خدم في ملابس جميلة خلابة، وغادات رومية حسان، وغوانٍ عاريات كاسيات غير متعفّفات تدل دلالًا، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع، ولا يزالون يُصَارُعُون حتى يخرّ الواحد منهم صريعًا يتشحط في دمه." اهـ.[٦]

فالحياة عندهم ليس لها أي معنى إلّا معنى واحد وهو أن يتفنّن الإنسان في إشباع رغباته وفي إشباع ملذّاته، تمامًا كالحالة التي نحن فيها اليوم، هو سباق محموم حول تحصيل الملذّات وحول إرواء هذه النفس التي لا ترتوي.

وقد بلغ الظلم على رعايا الشعوب التي كان يحتلّها الرومان؛ أن هذه الشعوب كانوا يضطرون إلى بيع أبنائهم للحصول على المال لدفع الإتاوات والضرائب للحكومة الرومانيّة، ذكر ذلك الأستاذ كرد علي في كتابه (خطط الشام) قال: "اضطر أهل الشام في ظل الاحتلال الروماني إلى بيع أبنائهم ليوفّروا الديون التي كانت عليهم من قِبل الدولة الرومانيّة" اهـ.[٧]

فالناس كانوا يبيعوا أبناءهم حتى يوفّروا للدولة الرومانيّة المال الذي يُستغلّ في إشباع الملذّات وفي إرواء هذه النفس المنهومة والسُّعار المحموم نحو إرضائها. فكان القانون السائد بين الحكومة الرومانيّة وبين الشعوب التي تحتلّها؛ أنّهم

---

[٦] انظر كتاب (ماذا خسر العلم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي ط مكتبة الإيمان صـ ١٤٨عن (Conflict of Religion & Science).

[٧] يقول الأستاذ الكرد علي في خطط الشام ط مكتبة النوري الثالثة ١\٦٥: "ولم تضف رومية بلاد الشام إليها مباشرة، ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضا رومانية، وظلوا غرباء ورعايا وكثيرا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال. وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام." اهـ

كانوا ينظرون لتلك الشعوب على أساس أنّها شاة حلوب تدرّ لهم المال والربح الوفير، فيُحسنون حلبها وفي نفس الوقت يسيئون علفها، ويعاملونها بمنتهى الظلم والإجحاف.

أمّا الدولة الفارسيّة صِنو الدولة الرومانية؛ فلم تكن بأحسن حالًا منها، وإنّما نفس ما رأيناه في الدولة الرومانيّة من الظلم والتجبّر نجده عند الدولة الفارسيّة، بل في الدولة الفارسيّة كان الأمر أسوء حالًا؛ فالأكاسرة تفوّقوا على القياصرة بادّعائهم الألوهيّة، وهذا الأمر كان –على التحقيق– موجودًا أيضًا عند القياصر ولكنّه كان عند الأكاسرة أظهر وأشدّ؛ لأنّ ديانة القياصرة ظاهريًا هي النصرانيّة، أمّا ديانة الأكاسرة فكانت الوثنيّة والجاهليّة، ومن ضمن صور الوثنيّة عبادة الملوك والرؤساء. وكان الأكاسرة يحكمون شعوبهم على أساس (الحقّ الإلهي) وأنّهم مفوَّضون من قِبل الإله في حكم البشر، ممّا جعلهم يُغالون في التجبّر والظلم، وممّا جعل الناس –للأسف– يغالون في الخضوع والخنوع لهم.

كذلك ما رأيناه من سباق محموم لإشباع النفس بالملذّات والشهوات عند الدولة الرومانية نجده عند الدولة الفارسية، بل زاد النعيم والترف عن حد خيالي يعجز الإنسان عن تصوره، وننقل لكم حادثة عجيبة جدًا، تجعلنا نتعجب من نسيج هؤلاء الناس ومدى الانتكاس في الفطر الذي وصلوا إليه.

انظروا إلى حالة (يزدجرد) آخر ملوك الفرس الذي أطاح به الفتح الإسلامي يوم أن فرّ من عاصمته المدائن وهو رجل مهزوم حُطّمت إمبراطوريّته التي كانت في وقت من الأوقات تتقاسم العالم وتتنازعه، انظروا إلى حاله وهو يفر وعلى أيّ شيء يخرج، نقل ذلك صاحب كتاب (إيران في عهد الساسانيّين) وهو فارسي، يقول في صـ٦٨١: "وهرب يزدجرد مع حاشيته ومعه ألف طاهٍ وألف مُطرب وألف فهّاد وألف بازيار فضلًا عمن سواهم، وعنده أنه في خفّ" اهـ.[٨]

فأخذ معه ألف طبّاخ هو يفرّ من المدائن آخر معقل له، فهو يفرّ من آخر معقل له وملكه ينهار ورغم ذلك هو حريص على الشهوات وحريص على الملذات، فكانت أمم غير صالحة بأي حالة من الأحوال لقيادة البشر، فبالفعل كان لا بد أن تنتقل قيادة البشر إلى أيد جديدة. وأخذ معه ألف مغنٍ حتى يُطربوه وهو يفرّ!، وألف فهَّاد أي قيّم

[٨] انظر ترجمة كتاب (إيران في عهد الساسانيين) لأرثر كريستنسن صـ ٤٨٥ عن (الثعالبي صـ ٧٤٢ وقارن حمزة صـ ٣٦).

للنمور، وألف قيّم للبازيار أي الصقور، وهذا غير حاشيته الخاصّة من الجواري والخدم والغلمان، وكان يستقلُّ هذا العدد ويعتبر نفسه لاجئًا حقيرًا، وكل هذا غير الأموال والجواهر.

وأنتم تعرفون أن المسلمين يوم أن دخلوا المدائن بُهروا بما وجدوه من المتاع، وكانوا لا يتخيّلون أن هناك أناسًا يتمتّعون بهذا الشكل، ورغم ذلك داسوا هذا النعيم بأقدامهم وأرسلوه كاملًا غير منقوص إلى الخليفة الفاروق، وقال: "إنّ قومًا أدّوا هذا لأُمَنَاء"، فقال له علي –رضي الله عنه–: (عَفَفْتَ فعفَّت رعيّتك).[٩]

فلك أن تقارن بين هؤلاء وبين هؤلاء، وانظر لأي شيء يحرص هؤلاء وعلى أي شيء يحرص هؤلاء، أولئك في حالة الهزيمة والهروب يحرصون على أي شيء، وهذا يذكّرنا بما حصل عندما دخلت العراق الكويت؛ على أيّ شيء كان يحرص الأمراء في فرارهم، المهم التاريخ يعيد نفسه!.

فكان يزدجرد يستقلّ هذا العدد ويعتبر نفسه لاجئًا حقيرًا وأنه في حالة يُرثى له من قلّة الحاشية وفقدان أسباب الترفيه والتسلية، فما زال وهو في تلك الحالة يحرص على الترفيه والتسلية لأنّ غاية الحياة عنده محصورة في هذا الهدف، وهو محقٌّ وفقًا لمبادئه التي يؤمن بها ووفقًا لمعتقداته؛ الحياة عنده منحصرة في هذا الهدف أن يتمتّع غاية التمتّع، فليس بعد الموت شيء عنده، فهو حريص على أن ينسجم مع معتقداته وتصوراته، وهذه الصورة نراها اليوم أوضح ما تكون.

وفي سنة ٤٨٧م حدثت حادثة كان لها أبعد الأثر في تاريخ الفرس، وهي ظهور رجل تسمّى بالمصلح وهو (مزدك بن باماد)، وهذا الرجل على التحقيق هو أوّل من قال بالشيوعية، فدعا هذا الرجل إلى أنّ المال والنساء مشاع بين الناس، وأنّ لكلّ الناس الحقّ في أيّ مال وفي أيّ امرأة مهما كانت وتحت يد من كانت.

يقول ابن جرير الطبري في كتابه (تاريخ الأمم والملوك) واصفًا لتلك الحركة التي قادها ذلك الرجل، وتلك الآثار المدمِّرة التي ترتَّبت عليها، يقول رحمه الله: "فحضّ بذلك السَّفَلَة على العِلْيَة، (...) وسهَّلَ السبيل للغَصَبَة إلى الغَصْب، وللظَّلَمَة إلى الظُّلم، وللعُهَّار إلى قضاء نَهْمَتِهِم." اهـ.[١٠]

---

٩ انظر (البداية والنهاية) لابن كثير ط إحياء التراث (٧٨\٧).

ويقول الطبري: "فافترص السفلة ذلك واغتنموه، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتُلي الناس بهم، وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم (...) فلم يلبثوا إلا قليلًا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك الرجل شيئًا مما يتسع به" اهـ.

وهذا كلّه قبل مبعثه ﷺ، في قطاع عريض من الأرض، فكان مزدك ينادي بما تنادي به الشيوعية في هذا العصر، والعجيب في هذا العصر أنّه وبعد انحلال الشيوعيّة تخلّى عنها كلّ الشيوعيّين تقريبًا إلّا الشيوعيين العرب، وهذا أمر عجيب جدًا؛ الشيوعية في بلادها نُبذت وصارت رمادًا لا تُذكر إلّا لضرب المثل ولأخذ العبرة، إلّا الشيوعيين العرب!. حتى كتب أحدهم وهو رجاء النقّاش، قال: "الشيوعيون لا يتقبّلون العزاء".

وساعد المزدكيّين على المضي في جرائمهم وتحقيق الشيوعية التي يدعون إليها إجابة (قازان) الملك الحاكم وقتها لهم وتعاونه معهم، وأن أخاه (جاماسب) كان واحدًا منهم، فالملك وأخوه كانوا من أتباع هذه الملة الخبيثة. واستمر هذا الوضع حتى مجيء كسرى (أنوشروان) فأصلح الأوضاع وقضى على هذه الحركة.

ورغم القضاء على هذه الحركة إلا أنه بقي منها بعض الآثار، من هذا القبيل ما رواه المؤرخون أن يزدجرد الثاني كان متزوجًا من ابنته، ثم قتلها بعد ذلك، وكذلك كان بهران قنديل والذي حكم في القرن السادس قبل مبعثه ﷺ بقليل، كان متزوجًا من ابنته كذلك، وهذا كله من آثار تلك الشيوعية التي قادها ذلك الرجل المعروف بمزدك.

هذا عن الحالة السياسية في تلك المرحلة، وقد مرّت كثير من النماذج حول الأحوال الاجتماعية وحول فساد الأخلاق والفطر والنفوس.

---

[1] تاريخ الطبري (٢\٩٩).

[1] تاريخ الطبري (٢\٩٣)

الخلاصة والفوائد من دراسة حالة البشريّة قبل مبعث النبي ﷺ:

الخلاصة والمحصّلة ومختصر القول في هذه المسألة؛ أن هذه الفترة السابقة لمبعثه ﷺ كانت –على التحقيق– من أحطّ أدوار التاريخ البشري، ومن أشدها ظلامًا ويأسًا من أي بوادر للإصلاح، إلّا أنّ الغيب كان فيه ما فيه، ومهما حاول الواصفون أن يصفوا لنا تلك الفترة فلن نجد أبلغ من قوله تعالى في كتابه: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[١].

وكذلك قوله ﷺ فيما أخرجه مسلم والإمام أحمد في مسنده: (إن الله نظر إلى أهل الأرض؛ فمَقَتَهُم عَرَبَهم وعَجَمَهُم إلا بقايا من أهل الكتاب)[١].

ولأحمد شوقي بيتان من الشعر من قصيدة طويلة يقول فيه:

أَتَيْتَ والنَّاسُ فَوْضَى لا تَمُرُّ بِهِمْ	إِلَّا عَلَى صَنَمٍ قَدْ هَامَ في صَنَمِ
مُسَيْطِرُ الفُرْسِ يَبْغِي في رَعِيَّتِهِ	وَقَيْصَرُ الرُّومِ مِنْ كِبَرٍ أَصَمُّ عَمِ
والأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا مُسَخَّرَةٌ	لِكُلِّ طَاغِيَةٍ فِي الخَلْقِ مُحْتَكِمِ

ونحن لم نتكلم عن حال العرب قبل مبعثه وللكلام بقية إن شاء الله؛ فالعالم كان يرزح تحت نير الجاهلية والوثنية والظلام قبل مبعثه ﷺ.

والذي يهمّنا والذين نريد أن نخلص به من هذا العرض مسألة على غاية من الأهميّة؛ وهي أنه في وسط هذا الظلام الحالك، وفي وسط هذا الكفر الجاثم بأنفاسه على العالم بأثره، وفي وسط هذا الركام الهائل من الجاهلية والوثنيّة في العقائد والتصوّرات والسلوك والعادات والأخلاق التقاليد، وثنية وجاهلية في كافّة ألوان النشاط البشري؛ في هذا الوسط المحموم وفي هذه الجاهلية المُطْبِقَة المُحْدِقَة بدأ ﷺ دعوته أمام هذه القِوَى المتجمّعة من قوى الكفر والشرك والإلحاد...

---

[١] سورة الروم، الآية: ٤١.

[١] صحيح مسلم (٢٨٦٥)، مسند أحمد (١٧٤٨٤).

وما هي إلا سنوات معدودات في عمر التاريخ البشري وفي عمر الأمم والملوك حتى ساد أتباعه العالم، وتلك الفترة لا تساوي شيئًا على الإطلاق في عمر الأمم والملوك، فترة الدعوة المحمّدية من مبعثه إلا وفاته ﷺ ٢٣ سنة فقط، هذه الفترة لا تمثل نقطة في التاريخ البشري، لو أردنا أن نضع لها نسبة لا نستطيع، هي في تاريخ الأمم والملوك أقل من عمر الإنسان، كما قال ﷺ: (أعمار أمّتي ما بين الستين إلى السبعين)[١] ، مِنْ مَبْعَثه –عليه السَّلام– إلى القضاء على الإمبراطوريتين (الفرس والروم) أقلّ من خمسين سنة، وذلك في عهد الخليفة الثاني الفاروق عمر.

في أقل من خمسين سنة استطاع النبي ﷺ بتأييد الله له وبهذا القرآن المُعجِز الذي أُنزل عليه من فوق سبع سنوات وبهذا المنهج الربّاني؛ استطاع أن يكتسح هذا الظلام، وأن يزيل هذا الركام الجاهليّ من العقائد والتصورات والعادات والتقاليد والسلوك والأخلاق، وأن ينشر في العالم بأسره ضوء الإسلام ونور الوحي الكتاب والسنة.

وأكمل الصحابة من بعده المسيرة، وغطّوا جزءًا كبيرًا من العالم بهذا النور وهذا الفيض الإلهي، فانقلبت الصورة تمامًا في مدة أقل من عمر الإنسان، في أقل من ٥٠ سنة يتحوّل العالم ويتغير وجه الكرة الأرضيّة تغيرًا جذريًا من أقصى الظلام الحالك إلى أقصى النور؛ إلى الصورة المثلى، إلى النموذج القدوة الذي نستدلّ به إذا أردنا أن نضرب مثلًا على التطبيق الصحيح للإسلام.

الإنسان لو فكر في هذا التغيير فقط يخرج بدليل يقيني على صدق النبي ﷺ وعلى صدق دعوته كما قال الشيخ مصطفى السباعي، أن ينقل الناس من النقيض إلى النقيض في هذه الفترة القصيرة هي بحدّ ذاتها معجزة من معجزاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهذ المسألة تترتب عليها مسألة أخرى موجّهة إلينا نحن؛ مع الاحتفاظ بخصوصيته ﷺ وخصوصية الصحابة فهذا الجيل لن يتكرر، ولكن السبب الرئيس في هذا التغيير ما زال قائمًا بين أيدينا، وهو هذا الكتاب الرباني المحفوظ من بين يديه ومن خلفه، وهذا المنهج الإلهي السماويّ الذي ما زال اليوم بين الناس غضًا طريًا كما أُنزل، مهما عَلَا الناس من انحرافات ومن ركام ومن تصوُّرات جاهليّة ما أنزل الله بها من سلطان.

---

[١] سنن الترمذي (٢٣٣١)، سنن ابن ماجة (٤٢٣٦).

وكما حدثت المعجزة من قبل فنحن مُكلّفون ومَأمُورون من فوق سبع سماوات ببذل أقصى الجهد لإعادة ذلك، ولم نؤمر بتحقيق النتيجة ولكن أُمرنا بالسير بجديّة وبإخلاص وبصدق في المتابعة، مأمورون بأن نسلك مسلكهم، وأن نسير سيرهم وأن نقتدي بهم حقًّا وصدقًا فيما نحبّ وفيما نكره، فالمنهج هو المنهج والقرآن هو القرآن، ولكن الفرق هو في النفوس وفي القلوب التي تتعامل مع هذا المنهج وتتعامل مع هذا القرآن.

النقطة الثانية أن هذا التغيير المُعجز والخيالي فيه لنا -في هذا العصر- تحفيز للهمم واستثارة للعزائم لنسير سيرهم ونسلك دربهم، ونحن مُبَشَّرُون كذلك بالظفر والتمكين الذي تحقّق للصحابة الكرام رضي الله عنهم، فلماذا التأخير؟ ولماذا التَّواني؟ ولماذا التَّخذيل؟ فالنتيجة مضمونة لنا؛ إحدى الحسنيين إمّا النصر وإمّا الشهادة، فيصبح من السذاجة والبلاهة والغفلة التأخّر أو التراجع.

النقطة الثالثة والأخيرة: هي أنّ هذا التغيير الجذري والمعجز كما قلنا؛ فيه بشارة لنا في صراعنا الحاضر مع قوى الكفر قاطبةً؛ بأن الكفر والشرك مهما طغى وتجبّر ومهما تملّك من أسباب القوة الماديّة فإن عاقبة وَخيمة، وإن مآله إلى اندحار وإلى زوال، فالعاقبة للمتقين.

والذي ينظر إلى ما فعلته هذه الثلّة الأولى رغم أنهم لم يمتلكوا من العدة والعتاد مثل ما كان مع أعدائهم، إلّا أنهم امتلكوا صدق الإيمان وصدق المتابعة، ولذلك تحققت لهم هذه المعجزة. فهذه بشارة لنا، تدفعنا إلى التمسك بهذا الطريق، وإلى المضي قُدُمًا، وإلى التأسّي بهم والرغبة في نيل ما نالوا؛ إمّا الشهادة وإمّا النصر والتمكين.

فهذه العجالة هي عند المتأمّل البصير من المبشرّات، الذي يتأمل في حال العالم قبل بعثه ﷺ ثم ما آل إليه العالم بعد بعثته ﷺ؛ يعلم ويتيقَّن أن هذه بالنسبة لنا اليوم من المبشرات، هي على التحقيق مبشرات لزمن الاستضعاف الذي نحن فيه اليوم، وهذا إن شاء الله ما سوف نُفصّل الحديث فيه في درسنا القادم، سنستعرض أحوال العالم اليوم، ثم سنستعرض كذلك أن هذه الأحوال في ذاتها من المبشرات لنا، مبشّرات بأنّ النصر والتمكين والعاقبة هي للإسلام لا ريب في ذلك عن عند أهل اليقين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الثاني

تكلمنا في الدرس الماضي في تلك المقدمات بين يدي السيرة النبوية الشريفة عن أحوال العالم قبل بعثته ﷺ، ورأينا كيف أن هذا العالم كان يدور في جاهليّة جهلاء وفي ظلامة عمياء، وبالفعل يتحقّق للناظر والمتأمّل كيف كان في مبعثه ﷺ رحمةً للعالمين، ولذلك كان أمرًا طبيعيًا أن تنتقل القيادة والريادة من هذا التجمّع الوثني الجاهلي إلى تجمّعٍ آخر كان يُعدّ ويُصنع في عالم الغيب، ألا وهي القيادة الإسلامية الوليدة، والتي في فترة زمنيّة وجيزة أقل من عمر إنسان عادي استطاعت أن تغيّر وجه الكرة الأرضية، وأنت تنقله نقلة يشهد لها الأعداء قبل الأصدقاء.

نبذة سريعة حول حال العالم اليوم:

اليوم -إن شاء الله- نتكلم عن أحوال العالم اليوم في العصر الحديث؛ وذلك في استعراض سريع جدًا، نقف فيه على الخطوط العريضة، فنحن من قبل استعرضنا أكثر هذه المسائل في لفتة (المنطلقات العقائدية التي ينطلق منها أعداء هذا الدين).

ونهدف من هذا العرض السريع أن نبرهن أن تلك التجمّعات الجاهليّة على شتّى أصنافها غير مؤهّلة -بجميع المقاييس والمعايير التي يتعارف عليها البشر فضلًا عن إيمانهم أو كفرهم- غير مؤهلة في الاستمرار في قيادة هذا العالم، وأنّها بالفعل عجزت وعقمت أن تجد جديدًا ذا قيمة تقدّمه للبشريّة.

١- اليهود:

فنقول: بدأنا الحديث في الدرس الماضي عن اليهود، واليوم أيضًا نبدأ بالحديث عن اليهود، ولماذا اليهود في البدء والانتهاء؟ الإجابة معروفة: ونحن فصّلناها في بحث (المنطلقات العقديّة).

فنقول: بُعِثَ النبي ﷺ وبدأ دعوته وقوِيَت الشوكة الإسلامية وقامت الدولة الإسلامية واليهود هم اليهود أهل غدر وخيانة، فجحدوا نبوته ﷺ، ورموه عن قوس واحدة، وحاربوه وكادوا له، وهمّوا بقتله، إلّا أن الله –سبحانه وتعالى– عَصَمه من مؤامرتهم ومن كيدهم، حتى أجلاهم المسلمون عن الجزيرة العربية.

ثم بعد ذلك لم يقف اليهود عند هذا الحد، بعد أن أخزاهم الله وفضحهم وأذاقهم الخزي والنكال والتشريد والدمار بما كسبت أيديهم، إلا أن النفس اليهودية تأبى إلا الغدر والخيانة، وعداوة اليهود للإسلام والمسلمين أمر طبيعيّ، ويكفي في ذلك قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}[1] ، فمسألةٌ طبيعيّة أن يحاربنا اليهود، وأن يعملوا ليل نهار في الكيد لنا والتآمر علينا، وأساليبهم في ذلك تتعدّد ما بين الخفاء والعلنيّة، وما بين الكيد الداخلي والكيد الخارجي، وأخطرهما هو الكيد الداخلي.

فما من مؤامرة وما من مخطّط إلا وتجد أن خلفه بالفعل أصابع يهوديّة، ونحن تحدثنا عن هذه المسألة بشيء من التفصيل عند حديثنا عن (المنطلقات العقديّة)، وذكرنا أن اليهود هم الذي يمسكون بزمام الصراع مع الإسلام والمسلمين، ثمّ يحرّكون بعض العرائس والدمى لتتولّى هي تنفيذ ما يُخَطّطه اليهود في الخفاء، وأوّل هذه العرائس والدمى النصارى وعلى رأسها أمريكا –كما سيأتي معنا–، ثم العنصر المجوسي أو العنصر الباطني، ونحن تكلمنا عن تلك الفرق التي غرسها اليهود في داخل وخارج العالم الإسلامي. ثم بعد ذلك العنصر العربي أي هؤلاء العملاء من الأنظمة العربية المُرتدّة.

نقول: ما زال اليهود يمارسون هذا الدور، وكانت النتيجة العمليّة لنجاح مُخطّطاتهم هو قيام دولتهم إسرائيل في قلب العالم الإسلامي بل في أقدس مقدساتهم بعد الحرمين.

---

[1] سورة المائدة، الآية: ٨٢ .

٢– النصارى:

كما قلنا جاء النبي ﷺ وبدأ دعوته، وقُوبِلَ من النصارى كما قوبل من اليهود، رغم أنّهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل أشدّ كما قال عبد الله بن سلام –رضي الله عنه–، ورغم ذلك جحدوا نبوة محمّد ﷺ كصِنْوِهم اليهود وكذّبوه وآذوه بألسنتهم.

وفي العصر الحديث يقوم النصارى بتنفيذ ما يُمليه عليهم اليهود، ونحن قلنا من قبل أنّ اليهود استطاعوا أن يجعلوا من النصارى مطيّةً لهم في تنفيذ مخططاتهم وفي تنفيذ مآربهم ومصالحهم، فإن كان النصارى مطيّة لليهود في القديم فهم اليوم أشد خضوعًا وأشد اتباعًا لهم، ولا تغتر بالظاهر، ولا يغريك سياسيّو العالم، فعلى التحقيق الذي يُبَيِّتُ القرار هم اليهود والذي ينفّذ هم النصارى.

ونحن أشرنا إلى هذه المسألة كما قلنا في (المنطلقات العقدية)، بدايةً من (بولس) ومرورًا بـ(قسطنطين) ثمّ (هرقل) ثمّ (مارتن لوثر) ثم أولئك الباباوات الذين أسماهم اليهود بأنفسهم (باباوات من الحيّ اليهودي) ، انتهاءً ببابا ٦ الفاتيكان، فالباباوات الذي كانوا يتقلَّدُون أعلى منصب مسيحي في العالم كان أكثرهم صناعة يهودية من الحيّ اليهودي، والأمثلة على هذا كثيرة وربّما أشرنا إلى بعضها عند حديثنا عن (منطلقات عقائدية).

وهناك كتب أُفردت في الحديث عن هذه المسألة لمن أراد أن يتوسّع فيها، من أشهر هذه الكتب؛ كتاب (اللوبي اليهودي في أمريكا؛ من يجرؤ على الكلام) لبول فندلي وهو أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي في تلك الفترة، وكذلك كتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) لوليام كار، وكذلك كتاب (لعبة الأمم) لمايلز كوبلاند وكتاب (حكومة العالم الخفيّة) لشيريب سبيريدوفيتش والحديث عن آب روثر.

ونحن أشرنا من قبل إلى دور اليهود في صناعة الثورة الفرنسية، وإلى دورهم في صناعة الثورة البلشفيّة، وإلى دورهم في إسقاط الخلافة، وهلمّ جرًّا إلى وقت الناس هذا.

---

[١] الظاهر أن الشيخ يشير إلى كتاب (باباوات من الحيّ اليهوي) بقلم اليهودي يواكيم بيرنر، والكتاب يتحدث عن تسخير اليهود لمنصب البابوية لخدمة مصالحهم عن طريق المرابين وعن طريق اعتلاء ثلاثة منهم لـ(عرش الرسول بطرس البابوي).

٣- التحالف الصهيوصليبي وقيام النظام العالمي الجديد بعد حرب الخليج:

تكوَّن من هذين الطرفين من اليهود والنصارى تحالف عالمي يجمع قوى الكفر قاطبةً، التحالف الظاهر هو التحالف اليهودي الصليبي، إلّا أنّ هذا التحالف يَضُمُّ أطرافًا أخرى؛ فيضمّ العنصر الباطني، ويضمّ كذلك من ناحية التنفيذ -وربما هو من أهم الأطراف- العنصر العربي المرتد، الذي يقوم -على التحقيق- بتنفيذ أكثر هذه المؤامرات والمخططات، حربًا للإسلام وأهله، وإيثارًا للدنيا على الآخرة.

ونقول: هذا التحالف أخطبوتيّ بمعنى الكلمة، وهو تحالف مهما بالغنا في وصفه وفي تحديد خطورته لن نعطيه حقّه، فهو بالفعل تحالف خطير، وهي بالفعل هجمة شرسة يُراد لها أن تقتلع الإسلام من جذوره، وهكذا طلبوا وهكذا راموا، والله من ورائهم محيط.

نقول: ومن ثمّ هم يعملون على قدم وساق استغلالًا لتلك الفرصة التي واتتهم؛ ألا وهي فرصة ضعف المسلمين وغيابهم عن دينهم، ومن ثمّ ينطلقون بأقصى سرعة، ومن يراقب الأحداث العالمية في العشر سنوات الأخيرة يتعجّب من تلك السرعة التي تتحرك بها، فأسوأ الناس تخيُّلًا قبل مائة سنة لا يُصدّق ما وصلنا إليه اليوم.

ونحن لا نريد أن نستعرض العصر الحاضر بكل أذياله وإنّما نريد أن نركز على الفترة الأخيرة؛ آخر عشر سنوات، والبحث طويل -كما قلنا- ولكن نقف على خطوط عريضة.

الذي يهمّنا في تلك الفترة الأخيرة هو ولادة ما سمّي بـ(النظام العالمي الجديد)، الذي يستحق منّا عدّة وقفات، ظهر هذا النظام في أعقاب حرب الخليج، انتهت الحرب البادرة وسقطت روسيا والحلف المضاد لأمريكا، وبعد أن سقطت روسيا كان لا بدّ من إخراج مسرحيّ تظهر فيه أمريكا كقوة عالميّة وحيدة، وكان هذا الإخراج لا بدّ أن يكون متناسبًا مع حجم هذه القيادة العالمية الوحيدة، فكانت تلك المسرحية والتمثيلية المعروفة بـ(حرب الخليج الثانية) أو (عاصفة الصحراء) أو (أمّ المعارك) أو (القادسيّة) إلى غير هذه الأسماء التي يدجّلون بها على الناس.

وللأسف قيادات من الحركة الإسلامية، وليس من بلد أو اثنين أو ثلاث بل من أكثر بقاع العالم العربي والإسلامي؛ ذهبوا إلى صدّام (بطل القادسيّة)! وبايعوه على الخلافة وعلى قيادة المسلمين في مواجهة قوى الكفر

العالمية، وأسمعوه من الشعر ما ربّما لم يُقَل في أبي بكر وعمر، مشائخ أصحاب عمائم ولحى، والشريط مسجّل وموجود لمن يريد أن يشاهده.

نقول: كانت هذا الخدعة مسرحية واضحة لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان، إلا من طمس الله على بصيرته وأعماه عن نور الوحي فهو مثلهم، وبالفعل انتهت المسرحيّة وخرجت منها أمريكا كسيّدة أولى ووحيدة للعالم بلا منازع وبلا منافسة بل وبلا من يفكّر حتى بالمنافسة، والنتائج التي ترتبت على هذه الحرب خطيرة جدًا إلى أبعد حد، وستكون هذه النتائج مرحلة شبه أخيرة للصراع الدائر بين الإسلام وبين قوى الكفر العالميّة بشتّى أجناسها وأصنافها.

منطقة العالم الإسلامي بصفة عامّة ومنطقة الخليج بصفة خاصّة تَتَميّز بثقل لا يُشاركها فيه أحد في العالم، بجميع النواحي؛ السياسية والعسكرية والاقتصادية والاستراتيجيّة، والدينية كذلك حتى من الأديان الأخرى كالنصرانية واليهودية، وأمريكا منذ القديم تُفكّر في كيفية الوصول إلى هذه المنطقة، وكيفيّة وَضْع اليد الصليبيّة عليها بصورة مباشرة، أمّا اليد فهي موضوعة منذ عشرات السنوات ولكنهم يريدون وضعها بصورة مباشرة.

وأمريكا التحالف الصليبي اليهودي لم يغفل عن هذه المنطقة قبل حرب الخليج، ولكن هي دائمًا في عينه وتحت سمعه وبصره، دليل ذلك تلك القوات التي تسمعون عنها (سريعة الانتشار)، والتي لم تغادر حتى الآن سواحل العالم الإسلامي، سواء في ذلك القوات المحمولة في البر أو في البحر أو في الجوّ، وهذه القوات كما هو اسمها سريعة الانتشار، مدرّبة تدريبًا عسكريًا عاليًا على أن تستولي على تلك المناطق التي يحفظونها جيدًا ويعرفونها تمامًا قبل أن ينطلقوا من قواعدهم في أمريكا، والخرائط كُلّها عندهم، أصغر حيّ في أي دولة إسلاميّة صورته المكبّرة جدًا عند أمريكا وإخوانهم لا يبخلون عليهم بأيّ مساعدة.

فهذه القوات من خصائصها أنها في ساعات قليلة تنتشر وتحتل المواقع التي يراد لها أن تحتلها، فهذا أمر موجود من قبل، ولكن هذ المسألة لا تكفي لأنّ المخطَّط القادم أبعد مدى وأخطر من هذه المسألة، ويحتاج إلى قوات وإلى أعداد ضخمة حتى تقوم بالمهمة.

هناك مصالح رئيسية لهذه التحالف في المنطقة:

– أولها التمكين لدولة إسرائيل.

– ثانيها مقاومة المدّ الأصولي النامي.

– ثالثها النفط والثورة الاقتصادية التي تتميز بها هذه المنطقة.

ومن لا يعرف هذه الحقائق فهو لا يعرف عن دينه ولا عن واقعه شيء.

نقول: هذه المرحلة تحتاج سيطرة مباشرة من هذا التحالف اليهودي والصليبي، وهذه القوات سريعة الانتشار لا تكفي لتحقيق المراد:

أولًا: لأنّ هناك قوة أخرى مضادة لهذا التحالف تتمثّل في الصحوة الإسلامية المتنامية والمتزايدة ولله الحمد، وهذه الصحوة تُمَثِّل –كما صرّح بهذا قادة هذا التحالف بصنويه اليهودي والصليبي– العدو الأول واللدود لكلّ من أمريكا وإسرائيل أو الصليبيّة واليهوديّة.

السبب الثاني: أن هذه الأنظمة هي على التحقيق أنظمة ضعيفة مهترئة، ولا تستطيع أن تصمد صمودًا طويلًا إذا واجهت مقاومة حقيقية من أبناء المد الإسلامي، فهؤلاء حتى الآن لم يواجهوا مقاومة حقيقيّة، والذي يتابع الأخبار التي كانت تُذاع عن آثار الانفجار الأوّل الذي حصل في الجزيرة على مستوى دول الخليج يظنّ –إذا لم يعرف مكان هذا الانفجار– أن هذا الانفجار كان في بيت كل زعيم وفي بيت كل أمير وملك من هؤلاء الحُكّام، بسبب هذا الهلع غير العادي والخوف غير العادي من آثار انفجار واحد حدث وانقضى أمره، فهي أنظمة مهترئة وضعيفة وليس لديها قوة للتصدي لهذه الصحوة إذا شبّت واشتعلت نيرانها.

السبب الثالث: أن هذا التحالف يطمح إلى مسألة في غاية الخُبث، كما قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}[١] ، وقال: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} ، فهؤلاء القوم في

[١] سورة النساء، الآية: ٨٩.

حربهم هذه ينطلقون من منطلقات دينية، فالذي يغيظهم والذي يقتلهم هو هذا الدين الذي تنتمي إليه أيّها المسلم، وهذا هو الذي جاؤوا من أجله.

فكما جاءت الحروب الصليبية الأولى جاءت الحروب الصليبية الثانية من أجل القضاء على الإسلام ولمحو القرآن، كما كان النشيد الذي يردّدونه في الحروب الأولى: قائلهم: "أنا ذاهب لسحق الأمة الملعونة، لأحارب الديانة الإسلامية، ولأمحو القرآن بكل قوتي" اهـ. هذا كان نشيدهم الذي ينشدونه ويدندنون به وهم في طريقهم إلى العالم الإسلامي انطلاقًا من أوروبا. فهم على التحقيق جاؤوا للقضاء على الإسلام، ومحاولة القضاء على القرآن حتى لا يبقى في صدور أصحابه وفي عقولهم وفي قلوبهم إلا اسمه ورسمه.

هذه هي حقيقتهم، ومن ثمّ وضعوا المخطّطات التي تنتظم كل ميادين الحياة؛ العادات، الآداب، الأخلاق، السلوك، العقائد، التصورات، الأفكار، مخطط كامل يراد أن يُفرض على العالم الإسلامي بمنتهى الصرامة والقوّة، وهؤلاء الحكام ليس عندهم القوّة الكافية، وليس يمكنهم أن يكفروا بهذه الصورة من الكفر البواح، فهم لا يزالون يحاولون أن يحافظوا لأنفسهم بقدر من الشرعيّة، وخاصّة حكّام الخليج.

وهذا أمر كما قلنا يحتاج إلى سفور واضح في الكفر، مما سيؤلّب عليهم الناس، وممّا سيجعل للصحوة الإسلاميّة مُبَرّرًا قويًا في حرب هذه الأنظمة، وأمريكا وهذا التحالف الصليبي اليهودي يعرف أن هذه الأنظمة أضعف من أن تخوض هذه المعركة، فكان لا بد وجود مستند يأوي إليه هؤلاء الطواغيت المرتدّون.

وكان هذا المستند هو ذلك التواجد الشرس لتلك القوات العسكرية الخياليّة التي لم تحدث من قبل في تاريخ العالم الإسلامي، فحدث هذا الإخراج المسرحي لحرب الخليج، وتم استدعاء القوة الصليبية اليهودية، وللأسف دخل النصارى واليهود أقدس بقاع الأرض، وما زالوا فيها حتّى الآن.

ويوم أن دخلوها ويوم أن تكلم بعض المعترضين كان الردّ أنهم أتوا لمصالحنا وأنهم ما أن تنتهي الحرب حتى يخرجوا ويعودوا أدراجهم، وكانت تلك القوة في تلك الفترة ما يقارب ٥ آلاف جندي بمجموعها؛ كان الأمريكان منهم ما

---

[١] سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

يقارب ألفين، وفي السنة الماضية سنة ١٩٩٦م بلغ عدد القوات الأمريكية الموجودة في (المملكة العربية السعودية) وحدها ٢٠ ألفًا، أي عشرة أضعاف القوة التي كانت موجودة وقت حرب الخليج، فلينتبه النائم وليستيقظ الغفلان.

نقول صرّح بذلك (روبرت فيسك) في صحيفة (الإندبندنت) في ٢٩\٦\١٩٩٦م فقال: "إنّ الوجود العسكري الغربي في الخليج يصل إلى عشرة أضعاف ما كان عليه قبل سنة ١٩٩٠." اهـ

فقالوا: ما أن تنتهي الحرب إلّا ويخرجون، ونعم هم خرجوا ولكن جاؤوا بعشرة أضعاف آخرين، الذين كانوا في الحرب خرجوا وجاء عشرة أضعافهم، فهم صادقون يلجؤون إلى المعاريض!!؛ فالذين قاتلوا ذهبوا وجاء عشرة أضعاف الجيش الذي كان موجودًا في حرب الخليج.

نقول: هذا التواجد العسكري المكثّف من عشرين ألف جندي هو التواجد الموجود فقط في (المملكة العربية السعودية)، فهذا غير التواجد العسكري في دول الخليج؛ في الكويت، وفي عمان، وفي الإمارات، وفي البحرين إلى سائر تلك الدويلات، وهذا بالإضافة إلى التواجد العسكري الموجود في شمال إفريقيا؛ في مصر وليبيا والجزائر والمغرب، هذا بالإضافة إلى القوات العسكرية المحمولة بحرًا من الأساطيل الأمريكيّة الراسية في البحر المتوسّط، هذا بالإضافة إلى القوة العسكرية اليهودية المزروعة في قلب العالم الإسلامي في فلسطين.

ولو أردنا أن نستعرض بصورة سريعة القوة العسكرية اليهوديّة حسب الإحصاءات الرسمية فسنجد أنّها بلغت حدًا خياليًا، بينها وبين القوة العسكرية العربية مُجتمعة بون شاسع، ويكفي في ذلك الترسانة النووية التي تمتلكها إسرائيل، بالإضافة إلى أسلحة الدمار الشامل التي حُرّمت على المسلمين وأُعطيت لليهود. فالعالم الإسلامي هو بالفعل يخضع لاحتلال عسكري، ولو أراد هذا التحالف بين يوم وليلة أن يدخل العواصم العربيّة لتمّ لهم ما أرادوا، ولكن الله تعالى يحول بينهم وبين ذلك.

بعد انتهاء حرب الخليج ذهب نائب وزير الخارجيّة الإسرائيلي إلى سوريا في محادثات مع النظام النصيري، ورغم أن سوريا كانت في صف هذا التحالف إلّا أنه يقول له متبجّحًا: "لماذا العرب يفكّرون في المقاومة ولو أردنا أن ندخل دمشق في بضع ساعات لدخلنا؟"، وهو يقول هذا رغم أن العرب لم يفكروا في المقاومة ولكن هكذا جاء الكلام.

وهذا الكلام منه هو صحيح وحقيقة؛ لو أرادوا أن يدخلوا الرياض في بضع ساعات فسيدخلون، ولو أرادوا أن يدخلوا القاهرة في بضعة ساعات لفعلوا، إلى غير ذلك.

المهم والشاهد أن عالمنا الإسلامي بالفعل مُحتل عسكريًا، أمّا الوقت الذي يصبح فيه خاضعًا تحت الأحذية الأمريكية والإسرائيلية كشعب فلم يأتِ، ونسأل الله أن لا يأتي.

هذا من الناحية العسكرية، ومن الناحية الأمنية فالعالم اليوم كأنّه قرية صغيرة، تقف على رأس هذه القرية أمريكا تأمر وتنهى كيفما شاءت، كأنّها حاكم لتجمّع صغير، العالم أصبح اليوم على هذه الصورة، وهذه الصورة هي التي عمل من أجلها التحالف الصليبي منذ فترة طويلة إلى أن حقّق هذه الخطوة.

فاليوم أمريكا بالفعل هي شرطي العالم، تستطيع أن تتدخل في كل صغيرة وفي كل كبيرة، حتى الأمور البسيطة أصبحت من اختصاص الرئيس الأمريكي؛ فيستطيع أن يصدر أمرًا بالقبض على فلان الذي يعيش في القاهرة مثلًا، أو في الرياض أو في جدّة أو في عمان إلى غير ذلك من الأماكن.

تقول صحيفة (نيويورك تايمز): "إن مسؤول مكافحة الإرهاب (جورج تانيت) في المخابرات الأمريكيّة (CIA) يُخطّط للتنسيق بين أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية والفلسطينيّة، وأنّ هذا سيكون جزءًا من منظمة دوليّة تابعة للأمم المتّحدة تشترك فيها مخابرات الدول التي تهتم بالموضوع، وستكون المنظمة كالإنتربول (الشرطة الدوليّة) ولكنها ستتخصّص في التجسّس على الإرهابيين واعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة".

وطبعًا هذا الكلام ظهر كواقع عمليّ أثناء مؤتمر شرم الشيخ الذي عُقد لمكافحة الإرهاب، فخلال أيام معدودة استطاع هذا التحالف الأمريكي الصليبي أن يجمع العالم بأسره في منطقة شرم الشيخ، من أجل إرضاء اليهود ولمواجهة الإرهابيين الذين قاموا بعدة عمليات أرعبت هذا التحالف الأمريكي الصهيوني.

فمن أجل أن أمريكا هي سيدة العالم أو شرطي العالم أصدرت أمر لكلّ هؤلاء الحكّام والملوك والأمراء أن يجتمعوا، وما هي إلا أيام واجتمعوا بالفعل وكانوا تحت طوع أمر السيد اليهودي الصليبي.

فكما قالت الصحفية أنّهم يسعون لتكوين منظّمة عالميّة أمنيّة مهمتها الأساسية هي مكافحة الإرهاب وتتبّع الأصوليّين والإرهابيّين؛ يعني كلّ واحد منكم سيتتبّعونه، الآن فُرضت عليكم المعركة، فمن لم يقاتل اختيارًا فسيُقاتل اضطرارًا.

وستكون هذه المنظمة كالإنتربول (الشرطة الدوليّة) الذي يلاحق المجرمين ولكنّها ستتخصص في الأصوليين والإرهابيين، فالإنتربول هو لجميع المجرمين أما هذه فستكون مخصّصة للأصوليين، فانظر كيف لنا منزلة عندهم حتى أفردوا لنا منظمة خاصّة. وهذا من الرعب ولله الحمد؛ فأنتم واحد منكم فقط كفيل بأن يرعب العالم، أربعة من فلسطين المحتلة التي تحتلها كل هذه الجيوش الصليبية واليهودية أرعبوا العالم وأخافوه، والعالم كله -برؤسائهم وملوكهم وطواغيته- اجتمعوا من أجلهم، فليُقدِّر كلٌّ منكم نفسه، ولا يتدنّ إلى مستوى لا يرضاه الله تعالى له.

إذًا هذ التحالف اليهودي الصليبي يريد أن يسيطر على العالم سيطرة تامّة عسكريّة وسياسيّة وأمنيّة، أمّا اقتصاديًا واجتماعيًا فهم مسيطرون من أمد بعيد، والعالم العربي والعالم الإسلامي يعيش كعالة على هؤلاء القوم.

تقول مجلة (التايمز) في العدد الذي صدر في ١٩٩٦\٧\٨: "إنّ مهمّة القوات الأمريكيّة الموجودة في الخليج بشكل عام هي حماية آبار النفط وتحقيق مآرب أخرى".

فما هي هذه المآرب الأخرى؟

أظن كل لبيب بالإشارة يفهم، وقد أسلفنا الحديث عنها، وهي التوكيد والتمكين لإسرائيل ثمّ مواجهة المدّ الأصولي النامي، هم يخافون أن يتغلّب تيّار من التيارات الإسلامية على الحكم في أي بلد من هذه البلدان العربيّة، ويتوقّعون كذلك أن هذه الأنظمة العربية ليس لديها القدرة على مقاومة ذلك لو حدث، ولذلك هم جاؤوا بأنفسهم حتى يكون لديهم القدرة في المواجهة لو حدث هذا الأمر.

هذا بالإضافة إلى أوربوا الموحَّدة التي يُعدّ لها من سنين، وبالفعل قطعوا شوطًا كبيرًا في الاتّفاق على هذه الدولة الكبيرة التي هي على وشك الظهور ككيان عالمي كبير، اتفقوا على أمور كثير، حتى أنهم اتّفقوا على إنشاء جيش أوربي موحَّد، وعلى أعقاب سقوط أو تفكّك روسيا أصدر رئيس أركان الحلف الأطلسي تصريحًا ربّما سمعه بعضكم،

وهو أنه قال: "بعد سقوط الشيوعية لم يبقَ أمامنا إلّا عدوّ واحد هو الإسلام" اهـ. وهذا رئيس أركان جيش الحلف الأطلسي.

نماذج تاريخيّة لهجمات صدّها الإسلام وانتصر عليها:

نقول هذه كانت صورة سريعة جدًا لأحوال عالمنا وما يواجه الإسلام والمسلمون في تلك الفترة، ومن عمق المحنة ومن حدّة الظلام ينبثق الفجر إن شاء الله تعالى، قال أحدهم:

لـــئن عـــرفَ التـــاريخ أوسًـــا وخزرجـــا فللـــــــه أوسٌ قـــــــادمون وخـــــــزرجُ

و إن كنـــوز الغيـــب تُخفـــي طلائـــعا مجاهـــــدةً رغـــم المكائـــد تخـــرجُ

وبالفعل لله أوسٌ قادمون وخزرجٌ، ولا نحسبهم إلا أنتم والله حسيبكم، والذي أخرج هؤلاء قادر على أن يُخرج أمثالهم، فكما قلنا الذي حقّقوا المعجزة من قبل حقّقوها بأمر واحد هو الإيمان الذي تميّزوا به، وبتمسّكهم الحقّ بهذا الدين، وهذا الدين مازال قائمًا وسيظلّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهذا المنهج الربّاني هو السلاح الأول الذي اتّكلوا عليه بعد الله –عز وجل– في تحقيق نصرهم.

إلّا أن هذا التحالف وهذه القوى الكفريّة المجتمعة هي ابتداءً لا تحاربنا وتعادينا نحن كبشر بل الحرب –على التحقيق– هي مع الله سبحانه وتعالى، وليس لأحد على الله من طاقة، كما قال أبو جهل لقريش: "يا معشر قريش إن كنّا نحارب محمدًا وأصحابه فنحن وهم، أمّا وإن كنا نحارب الله فلن يغلب اللهَ غالب"، فهذا الجاهليّ فرعون هذه الأمّة يَعِي هذه الحقيقة، فأولى بنا نحن أن نعرفها ونستيقنها في صميم قلوبنا.

وهذه الحملة الشرسة هي والله غمّة، سحابة صيف عمّا قليل تنقشع، ولكن الأريب والعاقل والفَطِن هو الذي تنقشع عنه بخير، فإمّا أن يكون عزيزًا مكرمًا منصورًا ممكَّنًا، وإمّا أن يكون شهيدًا موسَّدًا، وليس بينهما ثالث.

وحتى تروا هذه الحقيقة بأمّ أعينكم نقول: ليست هذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها الإسلام والمسلمون لهذه الهجمات الشرسة، بل على العكس؛ الإسلام على مدى تاريخه الطويل تعرّض لهجمات متتالية، ربّما بلغ بعضها في القسوة والشراسة والخطورة ما يزيد على هذه الهجمة اليهوديّة الصليبيّة.

هجمة الردّة بعد وفاة النبي ﷺ:

كانت أولى تلك الهجمات بعد وفاته ﷺ هي هجمة الردّة، ارتدّت الجزيرة العربيّة عن بكرة أبيها ما عدا المدينة ومكّة وقبيلة أو قبيلتان، وكان هجمة شرسة في تلك الفترة الحرجة، رمى المرتدّون المسلمين عن قوسٍ واحدة، وأرادوا بالفعل أن يستأصلوهم وأن يقطعوا شأفتهم، والناظر لأوضاع المسلمين في تلك الفترة يجد أنّها بلغت الغاية في الحرج، والغاية في الخطورة، والغاية في نقص الإمكانيّات الماديّة والبشريّة.

فأبو بكر الصدّيق –رضي الله عنه– يُصرّ على إنفاذ جيش أسامة، والصحابة يرون الخطر المُحدِق عليهم من جميع الجوانب، وانظر إلى تلك المقولة التي قالها أبو بكر والتي تُبيّن لك مدى الخطورة والخطر المحدق بالمدينة وبالمسلمين؛ يقول: "والله لو لعبت الكلاب بخلاخل نساء المدينة، ما رددتُ جيشًا أَنْفَذَهُ رسول الله ﷺ"[1].

فالخطر محدق لا يُماري فيه أحد، صارت المدينة كنقطة في بحر من الكفر، يخاف المسلمون على أنفسهم –صباح مساء– أن يجتاحهم المرتدون؛ ورغم ذلك يصرّ أبو بكر على إنفاذ جيش أسامة، القوة الأساسية للمسلمين في تلك الفترة؛ تطبيقًا وامتثالًا لأمره ﷺ. وفي هذا أعظم دليل لهؤلاء الذين استمرأوا سياسة التنازلات وفقه "المصالح والمفاسد" الفاسد؛ ففي هذه الأوضاع يصرّ أبو بكر على إنفاذ الجيش، فماذا نقول لهؤلاء الذين لم يتعرّضوا –لا في قليل ولا في كثير– لما يُسمّى ضرورة أو إكراهًا، ورغم ذلك يلجؤون إلى التَّنازلات من خلال المُسايسات والمكاتب والريالات وإلى سائر هذه الأمور؟! ويقولون: "ضرورة وإكراه و..". فانظر إلى أبي بكر وانظر إلى أحوالهم وأفعالهم.

---

[1] ذكره السهيلي في (الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام) بلا إسناد، ت السلامي (٧\٥٨٢).

نقول خاض المسلمون غمار حرب الردّة، ووقفوا سدًا منيعًا أمام هذه الهجمة، وما هي إلّا فترة يسير في عمر الزمن وانجلت هذه الهجمة على خير ما يكون.

الهجمة الصليبية في معركة ملاذكرد:

الهجمة الثانية لم تقل خطورة عن الهجمة الأولى، وإن كانت الفترة بينهما بعيدة نسبيًا، وهذه الهجمة ربّما تكون غير مشهورة لدى الكثير من الناس، كانت في زمن الدولة السلجوقيّة، تحديدًا سنة ٤٦٢هـ.

كان هناك ملك نصراني يدعى (أرمانوس)، كان يحكم الرومان في تلك الفترة، وهذا الرجل كان يمتلئ حقدًا وحسدًا وغيظًا على الإسلام والسلمين، وكان يسعى بكلّ ما استطاع لهزيمة الإسلام والمسلمين، ونذكر لكم ما كتبه ابن كثير عن هذا الواقعة، ونحن كما قلنا نبرهن على أنّ الهجمات التي يتعرض لها الإسلام رغم شراستها كانت العاقبة فيها للإسلام والمسلمين لأنّ هذا الدين محفوظ بحفظ الله له، يقول ابن كثير في (البداية والنهاية):

"ثم دخلت سنة ٤٦٣ وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرج والفرنج، وعَدَد عظيم وعُدَد، ومعه خمسة وثلاثون ألفًا من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفا، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفا، ومعه مائة ألف نقَّاب وحفَّار، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمناجيق، منها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل. ومن عزمه –قبَّحهُ الله– أن يبيد الإسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيرًا، فقال له: ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين، والقدر يقول: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الحجر: ٧٢] "اهـ.[٢]

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ط: إحياء التراث (١٢\١٢٣).

واحسبوا عدد جيش الروم كما ذكره ابن كثير، وأنا حسبته فخرج معي عدد خيالي جدًا، يقول ابن كثير: "٣٥أَلْفًا مِنَ الْبَطَارِقَةِ، مَعَ كل بطريق ٢٠٠ألف فَارِسٍ"، يعني ٧ آلاف مليون، لو قلنا أن هذا العدد مبالغ فيه ألف ضعف يصبح عدد الجيش ٧ مليون!! وهذا غير الزيادات الأخرى التي ذكرها ابن كثير.

ولننظر إلى حال المسلمين في ذلك الوقت؛ كان ملك العراق وخراسان في تلك الفترة السلطان السلجوقي السنيّ الصالح ألب أرسلان، كان كلّ ما استطاع أن يجمعه للتصدّي لهذه الحملة الصليبيّة المتكوّنة من هذا العدد المهول، الذي قدّرناه بسبعة ملايين؛ كان كل ما استطاع أن يجمعه هذا السلطان ٢٠ ألفًا، يعني كان نقطة في بحر أمام ذلك الجيش الضخم، وهذا إذا افترضنا أن عدد الجيش ٧ ملايين فكيف بالعدد الذي ذكره ابن كثير وهو إمام ثقة، ما نسبة ٢٠ ألف بجانب ٧ ملايين؟! لا شيء، تخيّل أن يلتقي هذان الجمعان، أن يلتقي العشرون ألفًا مع السبعة ملايين!.

ورغم ذلك حدثت، حتى تعرفوا أن الله –عزّ وجل– حافظ هذا الدين، وحتى تعرفوا أنّ المسلم لو صدق مع الله –عزّ وجلّ– فهو كفيل بأنّ يحقّق المعجزات، مهما كان لدى أعدائه من العدد والقدرة، بصدق النية وبدعاء من قلب صادق تصبح هباءً منثورًا، وأمامنا أدلّة كثيرة جدًا من التاريخ الإسلامي.

هذا السلطان خاف وهاب ولكن ليس على نفسه ولكن خاب وهاب على الدين، ورأى أنّ الأمانة عظيمة، ورأى أنّه لو كُسر فعلى الإسلام السلام، فتردّد وفكّر واستشار واستخار، وانظر إلى البطانة الصالحة، وانظر إلى العلماء العالمين، جاءته المشورة القاطعة والفتوى الحاسمة الخالية من أي تردّد، من فقيهه وقاضيه الفقيه أبي النصر محمد بن عبد الملك البخاري، وحمّسه وشجّعه على المضيّ قُدمًا وعلى عدم التراجع وأنّ الله ناصره وحافظه.

وبالفعل حسم ذلك السلطان الصالح أمره، وجمع جيشه وخيّرهم بين البقاء معه وبين الانسياح في الأرض كيفما شاءوا، رغم أنّه لا يملك إلّا عشرين ألف، فشرح لهم الأحوال وأن الواحد منهم سيدخل وليس لديه ولا نسبة ضعيفة بالرجوع، ولكنهم رجال كما هو رجل، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، نحسبهم كذلك، لم يتراجع منهم رجل واحد، فالإسلام ليس قولًا وليس عقيدة نظرية وليس توحيدًا نظريًا، توحيد الأشرطة والكتب، وليس توحيد أولئك الذين إذا رأى أحدهم سوطًا تنازع عنه، وأنتم ترون الأمثلة.

عشرون ألفًا دخلوا على سبعة ملايين، يعني لو هجمت هذه الملايين بلا سلاح والمسلمين في كامل عدّتهم وعتادهم لقتلوهم بأيديهم، وهذا بالميزان المادّي وبميزان أهل الدنيا الذي أخلدوا إليه وتركوا ربّ السماء والأرض.

المهم لم يتراجع منهم رجل واحد وصمّم الجميع على التضحية في سبيل هذ الدين، وأعلنوها إمّا الإسلام أو فلتذهب نفوسنا، ولن يتقدم هذا الجيش إلّا على جثثنا وأجسادنا، وكأنّ قائلهم يقول:

ونحـــــــن أناسٌ لا توسُّـــــــطَ عنـــــــدنا   لنـــــا الصَّـــــدرُ دون العـــــالمين أو القـــــبرُ

أحدهما إمّا الريادة والعزّة والكرامة وإلّا فالموت أشرف لنا، وكما قال قائلهم:

إذا لم تكـــــــن إلا الأَسِـــــــنَّةُ مركبًـــــــا   فمـــــا حيلـــــةُ المضـــــطر إلا ركوبهـــــا

فإذا لم يأخذها بنيّة صادقة ورغبة فيها، فليأخذها اضطرارًا.

أعدّ السلطان وجهّز جيشه وخرج للقاء هذا الجيش العرمرم، وكما أوصاه الفقيه أبو نصر عمل؛ حيث أوصاه أن يخرج إليهم يوم الجمعة وأن لا ينابذهم إلا وقت الصلاة حتى تصيبهم دعوة المسلمين في العالم الإسلامي، وبالفعل وقبل الموعد المحدّد دخل السلطان إلى خيمته فاغتسل وتحنّط وتكفّن، فهو موت لا رجوع بعده ولم ينظر إلى خلفه أبدًا؛ لا للمال ولا للمنصب ولا للأولاد ولا للنساء ولا للدراسة ولا للدكتوراة ولا للماجستير ولا للشهادات، لم ينظر إلى هذه الأمور بل اغتسل وتحنّط وتكفّن، وفعل كلّ جيشه مثله، ٢٠ ألفًا خرجوا إلى مواجهة النصارى بأكفانهم، فهي أكفانٌ متحركة، ولك أن تتخيل هذا الموقف ٢٠ ألف كفن أبيض في مواجهة الصليب بجحافله وبجيوشه الجرّارة.

وأظن -والله أعلم- أنّ هذا لم يحدث في التاريخ الإسلامي إلّا في هذه الواقعة، ولم يبدأ القتال إلا في وقت الصلاة، وقبل أن تبدأ المعركة يقول ابن كثير: "فلمَّا كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفتيان، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، وَمَرَّغَ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ وَدَعَا اللَّهَ وَاسْتَنْصَرَهُ، فأنزل نصره على المسلمين، ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأُسر ملكهم أرمانوس" اهـ. [١] [٢]

[٢] (البداية والنهاية) لابن كثير، ط: إحياء التراث (١٢\١٢٣).

ولم تكد المعركة تبدأ حتى انتهت، انظروا إلى الصدق ماذا يفعل!، ونحن في وادٍ وهذه النماذج في واد، العيب والخلل ليس في قوة أعدائنا وتجبّرهم وفي عددهم وعدّتهم بل الخلل فينا نحن، نحن لم نخلص مع الله تعالى، والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [٢]، والآية واضحة لا تحتمل أي تأويل.

فلم تكد تبدأ المعركة حتى انتهت في دقائق معدودات، العقل البشري لا يستطيع أن يفهم ماذا حدث!، فكما قلنا ٧ ملايين على الأقل في مواجهة ٢٠ ألفًا، فمنحهم الله -عزّ وجل- أكتافهم، فهام الروم مولّين الأدبار على غير شيء، لا يعرفون أين يذهبون، والمسلمون يعملون تقتيلًا وتشريدًا وأسرًا كيفما يشاؤون، ولك أن تتخيل هذا المنظر ٧ ملايين يفرّون من ٢٠ ألف، منحهم الله أكتافهم في بضع دقائق.

وهذا الملك المتجبر المتغطرس وقع في الأسر ذليلًا صاغرًا، واقتاده المسلمون إلى الملك الصالح السلطان ألب أرسلان، فضربه وقرّعه بثلاث عصيات كما يضرب الأستاذ تلميذه، وأخذه المسلمون ليبيعوه في السوق، وهو كان قد خرج ليحكم الأرض بل قام ووزّع المناصب ووزّع البلاد ووزع العراق ووزّع بغداد، فوقع في الأسر ذليلًا صاغرًا.

فذهب به المسلمين ولم يجدوا أحدًا ليشتريه لكثرة الأسرى، كلهم زهدوا فيه، فلم يجدوا إلا رجلًا فقيرًا من فقراء المسلمين، فقالوا له هل تشتريه؟ فقال: "لهم ليس عندي شيء إلّا هذا الكلب، فإن وافقتم على أن تعطوه لي بهذا الكلب فلكم ذلك"، ونحن يا إخوة نضحك والواجب أن نبكي على أنفسنا، فوافقوا وباعوه له بالكلب، والكلب أغلى منه فهو نصراني كافر {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [٣].

فاستبدله المسلم بكلبٍ، إلّا أنّ السلطان ألب أرسلان أعاده إليه مرة أخرى، وافتدى هذا الملك النصراني أرمانوس نفسه كما قال ابن كثير بمليون ونصف دينار، فهذه آية من آيات الله -سبحانه وتعالى- في التمكين لهذا الدين وفي نصر أهله وأتباعه، وفي ردّ الهجمات مهما بلغت في قوتها وفي شراستها.

---

[٢] سورة محمد، الآية: ٧.

[٣] سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

الهجمة التتريّة:

هجمة أخيرة بلغت من القوة حدًا فظيعًا مُذهلًا؛ ألا وهي الهجمة التتريّة، مع الفرق بين الموقفين في حفظ المسلمين، ففي المعركة السابقة التي عُرفت بمعركة (ملاذكرد) بقيادة السلطان ألب أرسلان رأينا كيف أن المسلمين قاموا بواجبهم، ورأوا أنه ليس أمامهم إلا الموت أو النصر، أمّا في الهجمة التتريّة المغوليّة فالأمر محزن والغُمّة كبيرة.

المغول خرجوا لا يُولّون على شيء؛ يستبيحون كل شيء أمامهم، يقتلعون كل شيء وكل حصن الأخضر واليابس، حتى انتهوا إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد، وكانت المأساة المهولة المفزعة، ننقل لكم تصوير المؤرّخ الإسلامي الشهير الثقة ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ)، وهو ممن عاصروا هذه المحنة، يقول ابن الأثير –رحمه الله–:

"لقد بقيت عدة سنين مُعرضًا عن ذِكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أُقدّم إليه رجلًا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حدوثها وكنتُ نسيًا منسيًا، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يُجدي نفعًا. فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله –سبحانه وتعالى– آدم إلى الآن لم يُبتَلوا بمثلها؛ لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمنَّ ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصَّر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعن من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا.." اهـ.[٤] [٢]

ونضرب لكم بعض الأمثلة والقصص التي ذكرها ابن الأثير في كتابه؛ كان الجندي المغولي يدخل على درب من الدروب أو طريق من الطرق فيرى الجمع الغفير من المسلمين؛ فيبدأ في تقتيلهم واحدًا واحدًا حتى ينتهي من

---

[٢] (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، ط: دار الكتاب العربي، ت: عمر تدمري (١٠\٣٣٣).

مجموعهم، وهو واحد فقط، وأحياناً كان يدخل المغولي في حي من الأحياء وليس معه سلاح؛ فيُوقِف المسلمين ثم يذهب ويحضر سلاحه ثمّ يأتي فيقتلهم جميعًا. فمرحلة بعيدة وصل إليه التتار من العلو والفساد في الأرض، ووصل إليها المسلمون من الاستكانة لأعدائهم.

نقول محلّ الشاهد أنّ هذه الهجمة استمرّت عدّة سنوات إلّا أنها في النهاية تكشّفت لخير الإسلام والمسلمين، وكانت معركة (عين جالوت) التي انكسر فيها المغول وانتصر المسلمون، ثم بدأ خط الانحدار في القوّة المغوليّة، ثم كانت الحادثة الأخرى بعد ذلك أن أولئك المغول دخلوا في الإسلام، وهذا أيضًا من باب حفظ الله تعالى لهذا الدين.

بقي معنا بعد ذلك أن نستعرض بعد البشائر من داخل صفوف أعدائنا، في أمور تبشّر بأنّ هذا التحالف اليهودي الصليبيّ مهما بلغ من العلو والارتفاع فإنّه يوشك أن ينهار، هو تحالف قائم -بإذن الله تعالى- على شفا جُرُفٍ هارٍ.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الدرس الثالث: بشريات من داخل صفوف أعدانا

تكلّمنا في الدرس الماضي عن نبذة سريعة حول أحوال العالم في الوقت المعاصر، ورأينا كيف أن قوى الكفر قاطبة تتزعَّم وتقود حربًا ضروسًا ضدّ الإسلام وأهله، إرادةً منهم لإطفاء نور الله، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

واستعرضنا بوجازة معالم التحالف اليهوديّ الصليبيّ الذي تُدَبِّر له في الخفاء اليهوديّة، وتنفذ له في الخفاء والعلانية أمريكا ومن دار في فلكها، وقلنا إننا -إن شاء الله- سوف نستعرض تلك المسائل التي تُبشر بنصر الله -سبحانه وتعالى-، والتي تنبثق لنا من خضم المحنة ومن أتون تلك المواجهة المُستعِرة، هي بشائر تخرجُ أوّلَ ما تخرج من صفوف أعدائنا ولله في خلقه شؤون، وهذه البشائر لا ينتفع بها حقًّا إلا من نظر لها بعين اليقين؛ ينظر لها ويستحضِرُ في ذهنه صورة الوعد الرباني بالعاقبة للمتقين.

فنقول كما بيننا في الدرس الماضي فتلك الهجمة الشرسة التي يتعرّض لها الإسلام اليوم ليست بالأولى، وإنّما التاريخ الإسلامي يحفل بهجمات من هذه النوعية، تتابعت على ديار الإسلام والمسلمين، ورأينا أمثلة لهذه الهجمات؛ إلا أنّها -بفضل الله وحفظه- كانت تبوء بالخسران المبين وتتكشّف بخير الإسلام والمسلمين.

ونفس المسألة تتكرّر اليوم، نحن الآن لا نرى من المحنة إلا وجهها المظلم، ولكن الآن نتلمّح بعين اليقين وفي خضم تلك المحن المتتالية وفي أتاون الاستضعاف؛ نتلمّح الفجر القادم، ولكن لا يتلمّحه حقًّا إلا من صدق يقينه بهذا الدين.

بشريات من حال اليهود اليوم:

أمّا عن اليهوديّة تلك الديانة المحرّفة التي تلاعب بها رجالها، فهي دين مهترئ مُهَلْهَل لا يقوى على تكوين دولة تظلُّ ثابتة فضلًا عن أن يحكم هذا الدين العالم، فأخلاقُ اليهود معروفة لديكم من غشٍ ومكرٍ وغدرٍ وتنافس وتحاسد، وهذه الأخلاق تُعتبر العامل الأوّل في تفكك المجتمع اليهوديّ.

فالديانة اليهودية ديانة ماديّة؛ لا تؤمن بالبعث ولا بالنشور ولا بالحساب ولا باليوم الآخر، حتى عند أشد الناس التزامًا بها، فهذه المفاهيم الغيبية لا تُعْرَف عند اليهود، ومن ثمّ فهُم أناس ماديّون أشدُّ ما تكون الماديّة، وهذه المسألة تؤدّي إلى تفكّك رهيب في المجتمع اليهودي، وتؤدي إلى تنافس وتناحر وتشاحن وحقد وحسد وسوء خلق وإلى سائر تلك الرذائل، وصدق الله العظيم إذ يقول فيهم: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}[٢] ، وهذه خصلة مركوزة في نفس اليهودي، لا تستطيع مهما بلغت من التدين والالتزام بدينها أن تتخلص منها، فهم قومٌ غُدْر حتى بينهم وبين أنفسهم، فهذا عاملٌ أوّل في تفكك وانهيار المجتمع اليهودي.

زاد التناحر والتشرذم في داخل المجتمع اليهودي وأَوجُهُ التناقض والاختلاف بينهم ليصل إلى أَوْجِه؛ تلك الهجرة الجماعية التي دعت إليها إسرائيل لجمع يهود الشتات من كل أنحاء العالم في دولة إسرائيل، فاجتمع اليهود على اختلاف قوميّاتهم؛ يهود العرب ويهود الغرب ويهود الشرق ويهود الفلاشا، إلى غير هذه القوميات المختلفة، فازداد التناحر والتنافس بينهم.

فهم التنافس والتناحر قائم بينهم بدون أي عوامل خارجيّة؛ فعندما ازدادت هذه العوامل ازداد التناحر والتنافس والحقد والحسد الذي يُهدّد المجتمع اليهودي بالانهيار والتمزّق، ولولا وجود اليهود في المحيط العربي، ولولا أنهم يستشعرون الخطورة من كلّ مكان؛ لظهر هذا التنافس والتناحر بصورة واضحة للعيان، والذي يمنع ذلك هو شعورهم بالخطر الخارجي الذي يحيط بهم، فهذا الخطر الخارجي يجعلهم يتكاتفون ولو ظاهريًا لمواجهته ودفعه.

---

[٢] سورة الحشر، الآية: ١٤.

عامل ثانٍ يرشِّح الدولة اليهوديّة للانهيار هو ذلك التيّار المتنامي وبشدّة؛ وهو التيّار الديني المتطرّف عند اليهود، وآخر الاستطلاعات تشير إلى هذه الحقيقة، ذلك التيار ومنذ سنوات مُتعدّدة بَدَأ بالصعود التدريجي، إلّا أنّه وفي الخمس سنوات الأخيرة كان مُعدّله في القمّة، وهو ما عرّفه بعض المراقبين للأوضاع اليهودية بالأصوليّة التوراتيّة.

وذلك التيّار الديني أو اليميني –كما يسمّيه السياسيّون– بدأ يكتسح الساحة اليهوديّة، وبدأ يَتَرشّح كفكر يلتف حوله جميع اليهود في الخارج وفي الداخل، ورأيتم كيف أن لهذا التيار قوة رادعة، تسير جنبًا بجانب القوة الفكرية، ورأيتم كيف كان رئيس وزراء إسرائيل –الشخصيّة الأولى في إسرائيل– ضحيّة لهذا التيّار الديني، فمن منظور الاتّجاه الديني اليهودي كان إسحاق رابين عميلًا، ولكم أن تتعجّبوا؛ إسحاق رابين الذي حقّق لإسرائيل ما حقّق كان في منظورهم عميلًا لأنّه تنازل عن بعض الأشياء البسيطة لصالح العرب، فجاء مقتله على يد هذا التيار الديني.

وتُعتبر هذه الحادثة بداية الظهور القوي والفعَّال لذلك التيار الديني في المجتمع الإسرائيلي، وقوبلت الحادثة من الأوساط الشعبية بمنتهى الحفاوة والترحاب، وصار ذلك الرجل الذي قتل إسحاق رابين بطلًا شعبيًا، وانهالت عليه الرسائل والمكالمات، وهو الآن في سجون إسرائيل مُعزّز مُكرّم يعيش كأنه في بيته وزيادة.

المهم أن هذه الحادثة كانت بداية لظهور هذا التيار المتنامي، ثم كانت الحادثة الثانية والتي أكّدت تمامًا صحة النظريّة القائلة بأنّ إسرائيل تتّجه اتّجاهًا دينيًا صرفًا بحتًا؛ وهي الانتخابات الإسرائيلية؛ حيث فاز الاتّجاه اليميني بأغلبيّة أهَّلته لاستلام مقاليد الحكم بدون اللجوء إلى منافسه من (حزب العمل).

يقول الروائي الإسرائيلي (غروسمان) عن دولة إسرائيل، كما نشرت ذلك صحيفة (القدس) العربيّة بتاريخ ١٩٩٦\٦\٧، يقول هذا المفكّر المعروف: "هذه دولة تنحدر باتّجاه اليمين، دولة وحشيّة فاسدة، أكثر نزوحًا نحو التديّن والأصوليّة والطائفيّة العنصريّة" اهـ.

هذه تصريحاتهم وهذه أقوالهم، فالقوم من بدايتهم انطلقوا منطلقًا دينيًا، ونحن تحدثنا عن هذه المسألة عند حديثنا عن (المنطلقات العقائدية)، إلّا أنهم اليوم يظهرون هذه المنطلقات الدينية للناس كافّة، ومن قبل كانوا يخفونها لمصالح معتبرة أمّا اليوم فصاروا يعلنونها ويتبنّونها بمنتهى القوة والشدة.

ونفس الكلام ذكره أحدث الصحفيين الإسرائيليين فقال: "لقد اكتشف (بيريس) أن الشعب الإسرائيليّ شعبٌ يمينيّ"، فيقول هذا الصحفي أن بيريس -الذي كان ينافس حزب الليكوند وكان ينافس ذلك النتن (نتنياهو)- اكتشف أن الشعب الإسرائيلي شعب يميني أي دينيّ متطرّف، فهذه شعوبهم وانظر إلى شعوبنا.

وذكر مراسل صحيفة (الإندبندنت Independent) باتريك كوبرن (Patrick Cockburn) في ١٦\٦\١٩٩٦م قال: "الانقسام الأعمق في إسرائيل ليس بين اليمين واليسار، وليس بين الصقور والحمائم؛ ولكن بين المتديّنين والعلمانيّين اليهود، إنّه انقسام بين أولئك الذين يريدون دولة دينية وبين الذين يريدون رؤية إسرائيل كدولة قوميّة علمانيّة مثل غيرها من الدول." اهـ.

وبداية يجب أن تعرفوا أنه كلّما اتجّه المجتمع اليهودي نحو التديّن كلّما اقترب النصر من المسلمين وصار النصر حليفًا للمسلمين، فيجب أن تفهموا هذه النقطة جيدًا، وإن شاء الله سنتوسع فيها.

يعني حتى في إسرائيل فشل تيار العلمنة ونبذه الناس، ففشل في كلّ مكان إلّا في بلداننا هذه، لو أردنا أن نستعرض نتائج الانتخابات في الهند فسنجد أنّ أشدّ الأحزاب تطرفًا ومغالاة هو الذي فاز في الهند، وفي صربيا العالم كلّه يصرّ على تنحّي (رادوفان كارادزيتش) والصِّرب يُصرّون على بقاء (رادوفان كارادزيتش) الأصولي اليميني الأرثوذكسي المتطرف، وكذلك في إسرائيل؛ العالم كلّه -وعلى رأسه أمريكا- كان يساند (بيريس) إلّا أنّ الشعب الإسرائيلي أبى إلّا أن يختار تيّار اليمين أو التيار الديني.

الصراع الآن في إسرائيل هو بين التيار الديني الذي يريد دولة دينيّة قلبًا وقالبًا وبين التيار العلماني الذي يريد دولة علمانيّة مثله مثل غيرها، والنتيجة معروفة كما ظهرت في نتيجة الانتخابات الإسرائيليّة الأخيرة.

ومحلّ البشارة هنا التي نريد أن نُركّز عليها هو أن هذا التيار الديني لا يرضى إلّا بإسرائيل الكبرى، ولا يعترفون بحدود إسرائيل القائمة في يوم الناس هذا، ويُصرّحون أن هذه مسألة مؤقتة، وأن حدودهم الحقيقيّة هي حدود إسرائيل الكبرى المعلَّقة خريطتها في الكنيست اليهودي، ومن ثمّ فهم يرفضون وبشدّة (عمليّة السلام)، ويوم أن رأوا أنّ رابين تنازل بعض الشيء عن منطلقاتهم الدينيّة قتلوه رغم ما قدّم لهم ورغم ما شيّده للدولة اليهوديّة، فهم يرفضون وبشدّة ما يسمّى عمليّة السلام.

فانظر ماذا عندهم وماذا عندنا!، هم يرفضون عمليّة السلام، والمسلمون أصحاب الحقّ الذي لا يماري فيه أحد يهرولون -شعوبًا وحكّامًا بل ومن ينتسب منهم للعلم والدين- يهرولون إلى عمليّة السلام إلّا من رحم ربّي، فانظر ماذا لديهم وماذا لدينا!.

ومن هنا تأتي البشارة لمن رزقه الله الفهم السديد، ورفع عنه غشاوة التعصب والتقليد والنظر للناس من علو ومن رفعة وكأنّه هو الذي فقه وفهم، وعلم الله أنه لم يفقه ولم يفهم شيء، ولو خرج من هذه الدنيا بهذه الصورة فله أن يتمثّل بقول القائل:

إنْ كـــانَ منـــــزلتي في الحـــــبِّ عنـــــدكمْ ‏‏‏ مـــا قـــد رأيـــتُ فقـــد ضَـــيّعْتُ أيّامـــي

فمن هنا تأتي البشارة؛ أنّ هذا التيار يصرُّ على إسرائيل الكبرى ويظهر الحقد والعداوة للمسلمين بصورة واضحة، مما يُرجّح خيار الحرب، ويجعل الحرب هي الخيار الوحيد لحل القضية الفلسطينية، وهوما قرّره قادة هذا التيار، فقادة هذا التيار في اجتماعاتهم وفي احتفالاتهم يصرُّون أنه ليس هناك حل لتلك القضية بيننا وبين المسلمين إلا السيف، هم يقولون هذا بينما نحن نقول بل هناك أمر آخر وهو الحوار والمفاوضات وإلى آخر هذه الأمور التي أتقنها العرب!

ولذلك كانت هناك مسألة عجيبة جدًا لمن تدبرها ولمن يرقب المشهد؛ وهي أن كبار الأحبار والحاخامات اليهود كانوا يرفضون تلك الهجرة الجماعية لليهود من جميع أنحاء العالم إلى إسرائيل، وكانوا يرفضونها من منطلق ديني، فهم يعرفون -وفقًا لما هو مذكور في التوراة حتى اليوم- أنّه ما أن يجتمع اليهود في أرض الميعاد -في فلسطين- إلّا وسيعقب هذا الاجتماع فناؤهم ودمارهم.

وهذه مسألة صحيحة، فالناظر لتاريخ اليهود يرى أنه لم يجتمع اليهود في أرض الميعاد إلا وأعقب ذلك تدميرهم؛ كما حدث من (بخت نصر)، وكما حدث بعد ذلك من (تيطس) الروماني، لذلك صرّح كبار رجال الفكر اليهودي برفضهم الشديد لهذه الهجرة الجماعيّة، ووقفوا أمام القيادة السياسية موقفًا شديدًا إلا أنّ القيادة السياسية استطاعت بقوتها أن تفرض رأيها. فهذا الأمر أيضًا بشارة لنا.

وسبحان الله، هذه المسألة –ظهور التيار المتنامي والهجرة الجماعية لليهود من جميع أنحاء العالم من الشتات إلى فلسطين– كلّها تأتي مصداقًا لقوله تعالى في سورة الإسراء: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} .[٦٢]

مجمل تلك الآيات الكريمات يدلّ أنّه كلّما علا اليهود في الأرض فسادًا وطغينًا وتجبرًا وتكبرًا كلّما عاقبهم الله بالذلّ والفناء والدمار، إلّا أن يتوبوا ويحسنوا فيحسن الله إليهم، يقول تعالى: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا}، فهي سنة ربّانيّة كتبها الله على هذا الجنس؛ أنه كلّما علا وطغى وتجبّر وتكبّر في الأرض فإنّه دائمًا ومباشرةً يعقبُ هذا العلو الفناء والدمار عقابًا لهم على تجبرهم وعلى طغيانهم وعلى إفسادهم في الأرض.

يقول سيد قطب –رحمه الله– في تفسيره (في ظلال القرآن): "ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليُسلِّطنَّ اللهُ عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقًا لوعد الله القاطع، وفاقًا لسنته التي لا تتخلف.. وإن غدًا لناظره قريب!" اهـ.[٧٢]

وحديث أبي هريرة –رضي الله عنه– المتفق عليه لا يخفى عليكم، والذي فيه قوله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود).[٨]

وقد قال الرسول ﷺ أفصح من نطق بالضاد: (فيقتلهم المسلمون) ولم يقل "فيقاتلهم المسلمون"، لأن المقاتلة مفاعلة من القتال، ولكن الذي ينتظر اليهود هو القتل والتشريد والتدمير والتنكيل. وفي الحديث أنّ الحجر والشجر ينادي: (يا مسلم يا عبد الله)، وتحقيق الإسلام يكون بالاستسلام والانقياد لله تعالى في كل أمر وفي كل نهي فيما

---

[٢] سورة الإسراء، الآية: ٤–٨.

[٢] في ظلال القرآن ط دار الشروق "السابعة عشر" (٤\٢٢١٤).

[٢] صحيح مسلم (٢٩٢٢).

تحب وفيما تكره. والعبودية تدور حول أجنحة ثلاث؛ الخوف والرجاء والمحبّة، والمحبّة لا تتحقّق إلا بمحبة ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله، أي تحقيق الموالاة والمعاداة.

من الطريف ومن المضحكات أنّ اليهود يزرعون فلسطين الآن بالغرقد، فهم يعرفون أنّ الوقت آتٍ، أمّا المسلمون فبعضهم يدخلهم الدخن والدغل، فيقول لك: "نعم نعم ولكن.." ويستغرب ويشك في وعد الله، أو يشكوا من الواقع الأليم، ونحن نعرف أنّ الواقع أليم وأنّنا في زمن الاستضعاف ولكن المؤمن ينظر للعبرة وينظر للمآل ويرتقب وعد الله -سبحانه وتعالى-، فالآن اليهود يملأون أرض فلسطين بالغرقد جبنًا وهلعًا ويقينًا منهم بأنّ موعده قادم.

وسنأتي إلى واقعة عجيبة في السيرة، وهي قول حُييّ بن أخطب عندما أمرَ به النبي -عليه الصلاة والسلام- لتُضرب عنقه؛ فقال: "أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذَل"، ثم أقبل على الناس فقال: "أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضُربت عنقه" . فهم يعرفون أن وقتهم وأن نهايتهم قادمة لا ريب في ذلك، وإنّما دخل الشكّ كما قلنا بعض قلوب المسلمين؛ فهرول وسارع إلى ما يرضي أتباع اليهود.

مبشرات من حال الديانة النصرانيّة اليوم:

هذا عن اليهود وعن بوادر النصر من صفوفهم، أمّا عن صنو اليهود، شطر التحالف الصيهوصليبي الصليبية؛ فنقول بدايةً: المسيحيّة كدين سقطت من أنظار العالم، بل سقطت من أنظار أتباعها أنفسهم، بل سقطت في أنظار أشدّ الناس تحمسًا للديانة المسيحيّة من القساوسة والأحبار والباباوات، وأصبح النظر إلى الديانة النصرانيّة على أنّها أداة يستخدمها الساسة في الغرب لتحقيق مصالحهم، أمّا كدين معتَبَر له عقيدة، وله شعائر، وله أهداف يسعى إلى تحقيقها، وله رغبة في ريادة البشريّة؛ كلّ هذه المعاني اختفت تمامًا عن الديانة المسيحيّة، وصارت ديانة سياسية؛ ما هي -كما قلنا- إلا أداة لتحقيق بعض المصالح وبعض أطماع الساسة في الغرب، سواء في ذلك أمريكا أو أوربا.

---

[٢] انظر: سيرة ابن هشام، ط: السقا (٢\٢٤١).

وكانت الفضيحة الكبرى في السبعينات، والتي نشرتها الصحف الغربية بنفسها ومن أشهرها وكالة (رويتر)، هو الإفصاح أنّ بابا الفاتيكان (بولس السادس) كان عميلًا للمخابرات الأمريكيّة، وكان يتقاضى أمواله من تلك الهيئة المخَابراتيّة، وكانت هذه فضيحة عالميّة أظهرت ودلّلت على تلك النظريّة التي قال بها أول من قال رجال الفكر النصراني أنفسهم.

ومن قبيل الطُّرفة أنّ هذا الرجل -البابا بولس السادس- هو الذي أعطى لليهود صكّ التبرئة؛ فبرّأهم من دم المسيح، رغم أنّه من المعتقدات المسيحيّة الرئيسيّة أن المسيح قد قتله اليهود، هذا في معتقدهم ولكن {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}[3] ، ورغم هذا يذهب هذا البابا -رأس الديانة المسّيحيّة في العالم- في زيارة إلى إسرائيل سنة ١٩٦٤م ويعطي اليهود صكّ تبرئة من دم المسيح، ثمّ تتحدث الصحف الغربية بأنه كان عميلًا للمخابرات الأمريكية.

وقد عبّر عن هذه الحقيقة رجل من مشاهير رجال الديانة النصرانيّة، وهو بطران بيروت للروم الكاثوليك، وأنتم تعرفون ما لنصارى لبنان من ثقل في السياسة العالميّة وفي الديانة النصرانيّة العالميّة، عبّر مطران بيروت للروم الكاثوليك (غريغوار حدّاد) كما نشرت الصحافة اللبنانيّة في ١٢\٣\١٩٧٤ في محاضرة ألقاها في مدرسة الفرنسيسكان ببيروت، حضرها أكثر من ألفي شخص نصراني، قال في تلك المحاضرة الطويلة: "وبما أنّ الكنائس أصبحت مرصودة أكثر فأكثر في عالم اليوم من الذين هم في الخارج بل وفي الداخل أصبح المسيح مرفوضًا معها"، ثم قال: "إنّ الاستعمار الغربي والمسيحيّة تلازما معًا ضد الحضارة والقيم الإنسانيّة".

فبالفعل كان الكنيسة ما هي إلّا وسيلة أخرى بجانب القوى الاقتصاديّة والقوى السياسيّة لتحقيق مصالح الغرب الصليبي، وهذه المسألة كما قلنا عبّر عنها أحد كبارهم، وكانت النتيجة بعد أن صرّح هذا التصريح أن استدعاه بابا الفاتيكان هذا المطران وحاكمه ثمّ أرجعه بعد ذلك.

الخلاصة أنّ المسيحيّة كدين لفظت أنفساها وانتهت، ولم يبقَ منها إلا مسيحية سياسيّة، أو ما يعرف بتسييس النصرانيّة أمّا كدين فقد سقطت عالميًا؛ وأوّل ما سقطت سقطت في ديارها الرئيسية في أوروبا وأمريكا، وهذا الأمر لم

[3] سورة النساء، الآية: ١٥٧.

يحدث الآن وإنّما بدأ في العصور الوسطى؛ عندما كانت الكنيسة في قمّة طغيانها وتجبّرها تحارب العلم والعلماء، وتحارب الفكر، وتقف أمام الناس وتفرض عليهم الإتاوات، وظهرت في تلك الفترة صكوك الغفران إلى آخر هذه الأمور، ممّا جعل العامّة أنفسهم يسأمون ويفرّون وأصبح لديهم استعداد كبير للانقلاب على الكنيسة، وهذا ما استغلّه اليهود –كما بينّا بتفصيل– فقامت الثورة الفرنسية التي كان شعارها: "اخنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسّيس".

وإذ أردنا ان ننظر إلى بعض الإحصاءات، نجد أنّه في عقر المسيحيّة في إنجلترا أُغلقت خمسة آلاف كنيسة منذ الحرب العالمية الثانية وحتى سنة ١٩٧٨م، هذا في بريطانيا وحدها التي تعتبر معقل المسيحيّة ومن أهم حصونها، وهذا ربّما لا يعرفه كثير من المسلمين لأنّهم لا يهتمّون بمراقبة الوضع، وهذا في تلك الفترة فقط؛ والآن يمكن أن يكون ذلك العدد تضاعف، أُغلقت تلك الكنائس تمامًا ولم يعد الناس يقدمون إليها.

بالإضافة إلى ذلك أقبل الشباب النصراني إلى اعتناق كافّة الأديان سوى النصرانيّة، فهم يعتنقون البوذيّة ويعتنقون المجوسيّة ويعتنقون البراهيميّة ويعتنقون الشيوعيّة، بل ويعتنقون البهريّة والقديانيّة وإلى سائر هذه الملل، كل هذا فرارًا من المسيحيّة؛ لأنّهم بالفعل لم يجدوا أنها دين حق وصدق.

وهذه المسألة سبّبت لكبار رجال الفكر المسيحي مشكلة؛ كيف يقومون بجذب انتباه الشباب إلى الديانة المسيحيّة؟ وكيف يصدّونهم عن تلك الأفكار الأخرى؟ خاصّةً خوفًا من الإسلام ومن الشيوعيّة، وعندما سقطت الشيوعيّة صار الخوف من الإسلام المنافس القوي –باعترافهم هم– للديانة النصرانيّة المتزعزعة في عقر دارها.

مبشرات من حال المجتمعات الغربيّة اليوم:

هذا عن المسيحية كدين، أمّا عن الحضارة الغربية كقوة سياسية وعسكريّة، فنقول هذه الحضارة التي فُتِن الناس بزخرفها وظاهرها دون النظر إلى حقيقة الأشياء؛ تحمل أوّل ما تحمل مقوّمات فنائها وانهيارها، فالفساد والانحلال يضرب بأطنابه أينما تنظر، ففي أي مكان تنظر فيه تجد هذا الفساد والانحلال، وفي أي لون من ألوان النشاط البشري تتأمّل؛ تدرك تمامًا عمق هذا الفساد والانحلال.

فعلى سبيل المثال والاستعراض السريع؛ تجارة الرقيق الأبيض، الدعارة والزنى والعهر العلني، لا تكاد توجد بقعة في المجتمعات الغربية في أمريكا وأوروبا –وإن صغرت ودقت– تخلو من هذه الفاحشة، التي صارت أمرًا مألوفًا عاديًا لديهم.

إحدى الإحصائيّات الفرنسيّة ذكرت أنّ المكاسب التي يُحقّقها زعماء شبكات الدعارة خلال عام واحد بلغت ٣ آلاف مليون فرنك، أي ما يعادل ٢٣٠ مليون جنيه إسترليني، هذه عوائد وأرباح تلك التجارة النجسة في سنة واحدة، وهذه عمليّة منظّمة مقنّنة عندهم، لها قوانين ولها ضرائب ولها شركات ولها موظّفون ولها موظفات، ومسألة عاديّة تجري في المجتمع كأيّ نشاط بشري، بدون أي نكير من النفوس.

ومن الطرائف ما نشرته جريدة القبس الكويتيّة في ١٣\١٢\١٩٧٨م؛ حيث نشرت خبرًا طريفًا أنّ قاضي في إحدى المحاكم في نيويورك عُرضت عليه قضيّة امرأة تبلغ من العمر ١٤ سنة تمارس البغاء بصورة ظاهرة ومعروفة للناس، فلمّا عرضت تلك القضية على القاضي المبجّل أصدر قراره بالتبرئة وبالإفراج عن هذه المرأة، ثمّ قال: "تجارة الجنس والملذّات في إطار الحماية الطبيّة الحديثة لا تعدّ خطرًا على الصحّة العامّة وعلى الأخلاق".

حتى أنّ هذه المسألة –الدعارة العلنية التي صارت أمرًا طبيعيًا بل صارت من العلامات المميزة للمجتمعات الأوروبيّة– انتشرت إلى رجال الدين وإلى رجال الكنسية النصرانيّة، وصارت فضائح تشمئز منها النفوس. ومن أشد هذه الفضائح فضيحة لرجل مشهور، كان في وقت من الأوقات الرجل الأوّل في الكنيسة الأمريكيّة (جيمي سواجارت)، وأظن أنه معروف لديكم ومناظراته مع الداعية أحمد ديدات مشهورة، فضحه الله على الملأ، وهو رمز من رموز المسيحيّة في العالم وليس في أمريكا وحدها وله علاقات مع الكيان اليهودي، فانتشرت له فضائح جنسيّة أدّت به إلى الاستقالة من منصبه.

بل تعدّى الأمر من الزنا مع الأجنبيات إلى الزنا مع المحارم، وظهرت هناك فضائح كبيرة جدًا عن هذا النوع من أنواع الدعارة والعهر.

هذا عن تجارة الرقيق الأبيض أمّا عن الشذوذ فحدّث ولا حرج، فالمجتمعات الغربية في أمريكا وأوروبا تعجّ بالشاذين والشاذات جنسيّا، والسحاق واللواط أمر منتشر يضرب في أطناب هذه المجتمعات.

ومن المضحكات المبكيات أنّه في كندا نظّم الشاذّون جنسيًا مظاهرة في صيف عام ١٩٧٤م يطالبوا الدولة بسنّ قانون يبيح اللواط، المضحك هنا أنّ هذه المظاهرة اشتركت فيها الأمّهات؛ يطالبن بسنّ هذا القانون من باب الترفيه على أبنائهن، جاء في سياق الخبر: "واشتركت الأمّهات في المظاهرة حتى لا يتعقد أولادهم"!.

فحتى لا تصيب الولد المسكين عقدة يُسمح له بهذا من باب الترفيه عليه!!، ونحن يا إخوة لا نقول هذا الكلام للتسلية أو للضحك بل نقول هذا الكلام لأمرين؛ أولًا لنحمد الله -عزّ وجلّ- على نعمة الإسلام، هذه النعمة التي لا نقدّرها قدرها، ثم لنستبشر أن نصر الله آت، وأنّ هذه المجتمعات غير مؤهلة لقيادة العالم، وأنّ الدمار والخراب والتحلّل والانهيار يضرب بجذوره في صلب وفي داخل هذه المجتمعات.

وكذلك في بريطانيا -قائدة التمدُّن والحضارة- أصدر مجلس العموم البريطاني قانونًا يُبيح الشُذوذ الجنسي على المستويَيْن؛ على مستوى الرجال ومستوى النساء، وكانت الأغلبية ١٦٤ صوتًا داخل مجلس العموم البريطاني، وهذه إحصاءات قديمة، والذي يراقب الوضع يعلم أنّ المسألة زادت سوءًا، والانحلال وسوء الخلق والفاحشة تتفشّى يومًا بعد يوم.

وكذلك في السويد في سنة ١٩٧٤م صدر قانون يبيح للأخ أن يتزوج أخته، ولكن القوم لديهم تفصيل وتفريع دقيق!! فليس أي أخ يتزوج من أي أخت ولكن يقول القانون: شريطة أنْ يكون أخوها لأمها أو أبيها وليس الأبوين جمعيًا، يعني لا يكون أخًا شقيقًا، أمّا غير ذلك فلهم الحريّة في فعل أيّ شيء!!

ومن أول الأعمال التي قام بها (كلينتون) بعد تسلّمه الرئاسة لأمريكا أنّ أصدر قانونًا يُبيح الشذوذ داخل الجيش الأمريكي، ونحمد الله على نعمة الإسلام وإنّ هذه المسألة مؤشّر خطير على دمار هذا الجيش، وأصلًا لا يوجد جيش، ولا تغترّوا بهذه الجثث وهذه الأجسام، هؤلاء كالهشيم، وهؤلاء (الرامبو!) و(الروكي!) هم كالهشيم ما أن تسمع التكبير حتّى يتبوّل ويتغوّط على نفسه في مكانه.

وقد أكّد هذه المسألة ذلك الجيش العرمرم من الأبطال الأشاوس الذين خاضوا حرب الخليج مع صدّام، هؤلاء (الرامبوات!) الذين تجد أحدهم أربعة متر في خمس متر، مدجّجًا بالسلاح حتى أنك لا ترى وجهه من السلاح، فالسلاح في كل مكان، وجزى الله أولي الأمر خيرًا قاموا بواجبهم بالترفيه عليهم بالنساء والخمور ولحم الخنزير!، وهذه

أمور ذكرتها الصحف بالأرقام، فذكروا كم أدخلوا لهم من المومسات، وكم أدخلوا لهم من صفائح الخمور، وكم أدخلوا لهم من لحوم الخنزير؛ ترفيهًا عن جيش الأبطال في بلاد الحرمين!.

ونقول هؤلاء الأبطال في الحقيقة لم يقاتلوا ولم يواجهوا مقاومة، والذي قاتل بالفعل هم جيوش الدول المنتسبة للإسلام التي وضعوها في الصفوف الأولى، بينما كان الأمريكان في آخر الصفوف، فكانوا يتقدموا ليأخذوا المواقع ويستلموها؛ ورغم ذلك انظر إلى إحصائيات وزارة الدفاع الأمريكية بعد أن رجع أولئك الأبطال إلى بلدهم واستقبلوهم استقبال الأبطال، وكان بوش وقتها زعيم العالم.

المهم هذا الجيش عندما عاد إلى بلده أخرجت وزارة الدفاع تقريرًا، فمما جاء في التقرير أنّ ١٩% من هؤلاء الجنود الذي خاضوا هذه الحرب صاروا في حالة لا تسمح لهم بالقتال، يعني صاروا غير مؤهّلين للقتال بل صاروا أسوء من النساء، رغم أنهم لم يروا قتالًا ولم يروا مقاومة، فهم أدخلوا الباكستانيين والمصريين وغيرهم ليقاتلوا وهم يستلمون المواقع.

والأمر بالشيء يذكر؛ قرأت قصيدة كتبها أحد الكويتيين، وللأسف ليست معي ولو كانت معي لقرأتها عليكم، فظننت -والله الذي لا إله إلا هو- قبل نهاية القصيدة بقليل أنه يمدح المولى عزّ وجلّ، ثم تبيّن لي في النهاية أنه يمدح بوش ويضفي عليه صفات الربوبية والألوهيّة بصورة واضحة!!، وأظن أن أهل مكّة أدرى بشعابها ولديهم من ذلك تفصيل كثير، ويكفي ما تسمعها من المسمّيات هذه عندما عاد الكويت لبلادهم؛ أصبح للكويتيين أسماء عجيبة، فتجد أحدهم اسمه (عبد الله بوش)، (فاطمة سيلر)؛ انتكاسة!.

نقول أنّ الحضارة التي يسمّونها حضارة وهي دياثة ورذيلة؛ قضت على كلّ معدن من معادن الرجولة وعلى كل مقوّم من مقوماتها، فصاروا صورة هشّة ما أن يسمعوا تكبيرة حتى يولّوا الدبر، فهذه مؤشرات بقرب انفلاج الفجر.

أمّا عن المخدرات السلاح الفتّاك داخل المجتمعات الغربيّة في أوروبا وأمريكا؛ فاستمع لتقرير الحكومة الأمريكية بنفسها، جاء في تقرير الحكومة الأمريكيّة أنّ نسبة الشباب الأمريكي الذين كانوا يتعاطون المخدّرات عام ١٩٨٢م بلغ ٤%، وفي سنة ١٩٨٤% ارتفع نسبتهم إلى ٦٤%، أي في سنتين فقط، وأمريكا هي الدولة الأولى في العالم استهلاكًا للمخدرات.

جاء في التقرير: والذي يتوقّعه المسؤولون في إدارة مكافحة المخدّرات أنّه بحلول عام ٢٠٠٠م سيصبح جميع أفراد الشعب الأمريكي من مدمني الكوكايين، أي بعد ثلاث سنوات فقط، فهي بالفعل يا إخوة مجتمعات منهارة من داخلها، ولكن للأسف الناس يغترّون بالزخرف وبالبهارج الخارجية حتى عند بعض الملتزمين وطلبة العلم، فتقول له: الحضارة الغربية على وشك السقوط، فيُماري في المسألة، فاليقين قد ضعف.

فهي مجتمعات مهترئة بالفعل، ومقوّمات وجودها معدومة فضلًا عن مقوّمات سيادتها للعالم، وهم يعرفون ذلك من أنفسهم -كما سيأتي معنا-، ومن أحدث ما كُتب في الخمس سنوات الأخيرة أكثر من سبع أو ثمان كتب كتبها غربيون بأنفسهم أنّ الحضارة الغربية مهدّدة بالسقوط، بل منهم من قرّر أنها ساقطة لا محالة، ومنهم من وضع سيناريوهات تقترب من هذه الصورة.

أمّا عن الأمراض النفسية ومعدّلات الانتحار والجنون والهبل فحدّث ولا حرج، فالقلق النفسي يكاد يكون سِمَة ظاهرة للمجتمعات الغربية في أوربا وأفي وأمريكا، في بريطانيا وحدها -ونحن نركز على بريطانيا وأمريكا- بلغ عدد الذين يحاولون الانتحار سنويًا ٥٠ ألفًا، أمّا في أمريكا -سيدة العالم ومعبودة الجماهير التي يعبدها فئام كثيرون من الناس- فقد ذكرت صحيفة (النهار) في ٤\٤\١٩٧٤م هذا الخبر: "الأمريكان اخترعوا طريقة للحاسبة الإلكترونيّة لتصبح قادرة على استيعاب أرقام حوادث الانتحار"، فنتيجة لارتفاع معدلات الانتحار لم يصبحوا قادرين على حسابها فقاموا باختراع جهاز ليحسب لهم أرقام الانتحار، وهذا في سنة ١٩٧٤م أي قبل أن أكثر من عشرين سنة!.

في أواسط الثمانينات كانت هناك ظاهرة منتشرة في المجتمعات الأوربيّة وهي ما يعرف بزجاجات السعادة؛ ففي عالم ١٩٧٣م كانت تباع في باريس زجاجات تبعث على الأمل والمحبة؛ فعندما قبضوا على الذين يقومون ببيع تلك الزجاجات وجدوا في داخلها الفيتامينات التي تباع في الصيدليات والأسواق بأبخس الأثمان.

فالناس انتهت طموحاتهم ولم يعد لديهم شيء يسعون لتحقيقه، فقدوا جميع المعاني في هذه الحضارة الماديّة البغيضة، ونحن والحمد لله في نعمة، فهم يبحثون عن السعادة في كل مكان، في المال والنساء والخمر؛ حتى صاروا يُصوّرُون أفلام الجنس في الأطفال الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم الستة شهور، فانظروا للحيوانيّة والبهيميّة لأسياد العالم الذين يُطبّل لهم وينحني لهم كثيرون من المنتسبين للإسلام، فهي حضارة أفلست ولم يعد لديها ما تقدمه للعالم.

أما عن الأمراض المنتشرة بينهم فحّدث ولا حرج، فكلّ مرض خبيث ينتشر عندهم وعلى رأسها مرض الإيدز، والإحصائيات الغربية تقول أن في أمريكا وأوروبا عشرات الملايين من مرضى الإيدز، ومئات الألوف من حاملي الميكروب.

أمّا عن الجريمة وعن معدّلها؛ فالجريمة في المجتمعات الأوربية تحدث بمعدّل جريمة كل خمس ثواني!، ووصلت القوة التي بلغتها عصابات الإجرام أنها وصلت إلى درجة أن تفرض قراراتها على الحكومات، وفي ١٩٧٤م خرج الشعب الإيطالي بمظاهرة يطالب الحكومة بسن عقوبة الإعدام، لانتشار الجريمة وارتفاق معدّلاتها.

أمّا عن الفقر، وهي مسألة مهمّة لأنّ كثيرًا من المسلمين حتى من الملتزمين يظن أنّ هذه المجتمعات فوق حزام الفقر، وأن الناس في هذه المجتمعات يعيشون حياة ماديّة مريحة، وهذا ليس صحيحًا، واستمع لإحصاءاتهم هم بأنفسهم، عام ١٩٧٨م كان العدد تحت خط الجوع أي المعدمون الذين لا يجدون قوت يومهم، الذين يعيشون على صفائح القاذورات، بلغ عددهم عام ١٩٧٨م ٨٠٠ مليونًا، أمّا عددهم في عام ١٩٨٨ أي بعد عشر سنوات صار عددهم ٢ مليار، فهم بالفعل يحملون في داخلهم مؤهلات ومقوّمات دمارهم وانحدارهم.

يقول سيّد –رحمه الله– في كتابه (المستقبل لهذا الدين) صـ ٩٣: "فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج، نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دورًا في هذه الأرض هو مدعو لأدائه، أراد أعداؤه كلهم أم لم يريدوا" اهـ.

أمّا عن تمزّق المجتمع الغربي بصنويه أمريكا وأوروبا؛ فنقول: أمريكا تحمل في داخلها مقوّمات انهيارها كما كان يحمل الاتحاد السوفييتي تمامًا، فأمريكا من البداية دولة ليس لها شعب وإنّما هي مجموعة من الشعوب والقوميّات التي جُمِّعَت من أقطاب العالم، وهذه القوميّات إلى يومنا هذا بينها ما بينها من التنافس والتناحر والتشاحن والبغض والحسد إلى سائر هذ الأمور، ويعرف هذا من عاش في المجتمع الأمريكي عن قرب.

وفي الآونة الأخيرة ظهر تيّار يُبشّر بقرب تمزّق المجتمع الأمريكي من داخله، هذا التيّار يَرْفض كلّ ما هو غير أمريكي، فهي نزعة عنصرية أو نازية جديدة، تجمع بين التنظيم الفكري والقوّة والمسلّحة، أقصد بذلك ما عرف في الصحف بـ(المليشيات اليمينيّة)، والتي استعرضت قوّتها في الحادثة الأخيرة المعروفة بـ(انفجار أوكلاهوما)، فهذا

الانفجار قامت به تلك الجمعيّات الميليشية اليمينيّة المتطرّفة؛ والتي ترفض وبشدّة كلّ ما هو غير أمريكي؛ فترفض اليهود وترفض الملوّنين وترفض السود وترفض الإسلام، وتُصرّح في جميع تنظيراتها الفكريّة أنّ "أمريكا للأمريكيين وفقط"، ويُصرّحون أنهم في حالة حرب مع الحكومة الأمريكيّة حتى يسقطوها، وأنّ ما لدى الحكومة من أفرادهم هم في حالة أسر، وأنّهم يجب أن عليهم أن يعملوا من أجل تحريرهم. وهذه الميليشيات لا يتحركون إلا في الزيّ العسكري، وهم بمئات الآلاف ولديهم أسلحة كثيرة، ورأيتم كيف انفجارهم قمّة في الإتقان وكيف كانت الخسائر التي أصابت المجتمع الأمريكي فادحة، فهذا مؤشر كذلك لانهيار واندحار المجتمع الأمريكي من داخله.

عامل آخر يبشّر بتمزّق المجتمع الأمريكي هو السوسة اليهوديّة، اليهود ينخرون في كل مجتمع يحلّون به، فأمريكا صارت ألعوبة بيد تلك الطائفة القليلة من اليهود، وهذه المسألة ليست من عند أنفسنا وليست من أوهامنا ولكنّها مسألة صرّح بها أحد قادة الاستقلال الأمريكي وهو (بنجامين فرانكلين)؛ حيث يقول في خطاب ألقاه أمام الشعب الأمريكي ١٧٨٩م:

"هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية؛ وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود، أيها السادة: في كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخُلُقي، وأفسدوا الذمة التجارية فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب ماليًا كما هي الحال في البرتغال وإسبانيا"، وخلال ١٧٠٠ عام من التاريخ استطاع هذا الشعب من خلال الادّعاء بالمسكنة والمعاناة وبأنّه شعب مغلوب على أمره مطرود ومطارد في أنحاء الدنيا؛ استطاعوا من خلال ذلك أن يخدعوا شعوب العالم وأن يسيطروا على حياتهم. ١

وهذا التحذير قبل أكثر من مائة سنة من أوّل رئيس للولايات الأمريكيّة المتّحدة قبل الاستقلال، وهذه الوثيقة أودعها المسؤولون الأمريكيون في معهد (بنجامين فرانكلين) في فيلاديلفيا، فقام اليهود بسرقة النسخة الأصلية، فكان لدى المسؤولين عدّة نسخ مصوّرة عن الأصل، فقاموا بوضع نسخة بالمتحف فقام اليهود بسرقتها، وعندما وضعوا نسخة أخرى قاموا بإحراق المعهد بأكمله، وانتهى هذا المعهد من الوجود.

---

[٣] انظر: (حكومة العالم الخفية)، شيريب سبيرد وفيتش، ترجمة مأمون سعيد (٣١-٢٩) ، و(النظام الدولي الجديد) (٩٠-٨٩) ، وخطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، عبد الله التل (٢١١-٢٠٩).

يعلّق الدكتور عمر الأشقر على هذه الوثيقة المهمّة في كتابه (جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة) صـ ١٤٠: "والذي ينظر اليوم يعلم أنّ أمريكا غشيها الخطر الذي حذّرها منه رئيسها الأول، فوقعت فريسة لليهود، فقد أطاح اليهود بالمستوى الخُلقي هناك ودمّروه، وقبضوا بأيدٍ من حديد على اقتصاد أمريكا وإعلامها، وسخّروها لمآربهم ومصالحهم الخاصّة (..) وإنّني أعجب أشدّ العجب كيف قاوم الإسلام خطر اليهود هذه القرون الطويلة وكيف تهاوت أمريكا أمامه بعد فترة وجيزة" اهـ.

بالفعل هذا من حفظ الله تعالى لهذا الدين، وكلام الشيخ نفسه هو عن مُبشّرات النصر، فأمريكا والحضارة الغربية لم تصمد أمام الكيد اليهودي بضع سنوات، أمّا الإسلام فكما أنّه صامد فإنّ العاقبة له؛ إذًا الكيد اليهودي في المجتمع الأمريكي والمجتمع الغربي بصورة عامّة هو من مبشّرات النصر، ومن الأمور تجعلنا نتيقّن أنّ تلك المجتمعات على وشك الانهيار.

نكتفي بهذا القدر على أن نكمل في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

الدرس الرابع: متابعة الحديث عن علامات سقوط الحاضرة الغربية

تكلمنا -بحول الله وقدرته- عن أحوال العالم قبل مبعثه ﷺ، ثم تكلمنا عن أحوال العالم في الزمن المعاصر، في هذا العصر الذي نعيشه، ثمّ بدأنا بعد ذلك في الحديث عن تلك البشائر القدريّة التِي تُبشّر بانحدار ذلك التحالف الصليبي اليهودي الذي يعمل ليل نهار في محاربة الإسلام والمسلمين.

فتكلمنا عن انتهاء كل من اليهوديّة المسيحيّة كديانات عامليّة من الممكن أن تتطلع إلى قيادة البشر، أو أن يتطلع إليها البشر ليتخذوا منها قيادة لأنفسهم، بل رأينا أن اليهود والنصارى بأنفسهم هم أول من نبذ تلك الديانات المحرّفة، وأنّها ديانات مهترئة لا تصلح لإصلاح أصحابها فضلًا عن أن تصلح لقيادة البشريّة كافّة.

ثم تحدّثنا بعد ذلك عن تلك الأمارات الواضحة التي تحمل بين طيّاتها بشائر سقوط الحضارة الغربيّة رغم ما في الظاهر من زخرف يفتن كثير من الناس، واستعرضنا معًا أهم تلك الأمارات والعلامات من الفساد والانحلال الذي يعمل كالسوس في جسم الحضارة الغربية، ومن تلك الأمراض النفسية التي تنتشر بينهم حتى أصبحت قاسمًا مشتركًا بين جميع دول الغرب وعلى رأسها أمريكا.

ثم تحدثنا كذلك عن ذلك التمزّق والاختلاف الذي تعيشه هذه الشعوب، وأنّها أشتات جُمِّعَت تجميعًا، وهذا التجميع هو أوّل بشائر التمزّق والانحدار كما حدث مع الاتّحاد السوفيتي؛ رغم أنّ الاتحاد السوفييتي كان تجمّعه أقوى من التجمع الحالي لأنّه كان يقوم على أيدولوجيّة تجمع جميع من ينتمي إلى هذا الكيان الكبير وإن كانت فاسدة، وكانت النتيجة التي رآها العالم كلّه بسقوط الشيوعية وانحدارها.

سبب التركيز على عوامل سقوط الحضارة الغربية:

وهنا مسألة قبل أن نكمل حديثنا؛ لماذا نُرَكِّز على هذه الجزئيّة؟ ولماذا نركّز على إظهار تلك الأمارات والعلامات الواضحة التي تُبَشِّر بسقوط الحضارة الغربية؟

نقول الأمر في ذلك كما قام إبراهيم –عليه وعلى نبينا أفضل الصلات وأتمّ التسليم– وحطّم وكسّر الأصنام، فهي رسالة منه إلى الجاهليّة أنّ هذه الحجارة لا تنفع ولا تضر فعودوا إلى ربكم وتوبوا إلى رشدكم وإلّا فهي الطامّة الكبرى والقارعة على رؤوسهم، نفسُ ما هَدَفَ إليه إبراهيم –عليه الصلاة السلام– هو الذي نهدف إليه من استعراضنا لانهيار وانحدار الحضارة الغربية.

فالحضارة الغربية اليوم فُتِنَ بها كثير من المسلمين، فانبهار وفتنة كثير من المنتسبين للإسلام بأمريكا والغرب أظهر وأشخص من أن ندلِّل عليه، سواء في ذلك على مستوى الأنظمة الحاكمة أو حتى على مستوى الشعوب المحكومة، فالعلمانيّة والقوميّة والاشتراكيّة والشيوعيّة وسائر المذاهب الأرضية الإلحاديّة التي لم يُنزل الله بها من سلطان؛ كلّها تسارع وتتسابق في إرضاء ربّها وإلهها الذي ارتضته لنفسها من دون الله ربّ العالمين؛ أمريكا والغرب واليهود.

والعرب بدون دين هم العرب بدون دين سواء في الجاهليّة القديمة أو في الجاهليّة المعاصرة، وسيأتي معنا في السيرة النبويّة مواقف نقف عندها ونقارن فيها بين جاهليّة أبي جهل وأبي لهب وبين جاهليّة حسن وحسين ومحمد وصالح، الذين يتسمّون بأسماء إسلاميّة، وسنرى العجب وأنّ جاهلية أبي جهل وأبي لهب تأنف وتستحي من أن تفعل أفعال جاهلية حسن وحسين وصالح ومحمد وفهد إلى آخر القائمة السوداء، ولهذا الحديث مقام آخر نفصّل فيه ونضرب له الأمثلة.

نقول أنّ القوم فُتنوا تمامًا بالحضرة الغربية، وعبدوها حقًّا وصدقًّا بكل ما تحمل العبوديّة من معاني، بل عظّموها واحترموها وقدّسوها أكثر من احترام بعض المسلمين لله رب العالمين، ونقول هذا الأمر ليس غريبًا عن عرب الجاهليّة، فعرب الجاهليّة قبل الإسلام كانوا ينظرون إلى فارس والروم على أنهم آلهة ذلك الزمان، وعلى أنهم –بلسان العصر– صنّاع القرار، وعلى أنّهم سيف القدر، تمامًا نفس المعاني والمصطلحات التي كتبها وسطّرها كثير من المنتسبين للإسلام في هذا الزمن.

وانظروا إلى قصّة أبي سفيان عندما ذهب إلى الشام في رحلته التجاريّة والتقى بهرقل عظيم الروم، والقصة في صحيح البخاري في باب (كيف كان بدء الوحي)، والقصّة ستأتي معنا بطولها ولكن محلّ الشاهد هنا هو ما قاله هرقل بعد أن سأل أبو سفيان عن النبي ﷺ وأجابه أبو سفيان عليها، فقال هرقل في آخر كلامه: "فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميّ هاتين".[٢] [٣]

وهرقل كان من علماء النصرانيّة، وكان يعرف النبي ﷺ باسمه وبوصفه وبرسمه، وكان يترقَّب بعثه، إلّا أنّ الخبيث ضنّ بملكه، فالشاهد قوله لأبي سفيان: "فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين"، فأبو سفيان الجاهليّ قبل الإسلام –وشتّان بين الاثنين– كان ينظر للروم نظرة حكّام هذا الزمن لأمريكا والغرب وأنهم إذا أرادوا شيئًا فإنّما يقولون له كن فيكون، فتعجبّ أبو سفيان وخرج يحدّث نفسه: ألهذه الدرجة يخاف هرقل من محمّد! فلم يتقبّل هذا بعقل وماديّته وبكفره –قبل إسلامه رضي الله عنه–.

نفس المعنى يُردَّد اليوم في السرّ والعلن لدى هذه الأنظمة وما يدور في فلكها؛ فعندما نتحدّث عن سقوط الغرب وعن سقوط أمريكان وعن انحدار وانهيار هذا التحالف الصليبي اليهوديّ العالمي؛ ينظرون إليك نظرة أقلّ ما فيها السخرية والشفقة عليك، ويقولون: "ما هذا؟ أتقول أن أمريكا تسقط؟!! ما هذه الدروشة". فبالفعل هم عبدوا أمريكا من دون الله ربّ العالمين.

والذي رأى مهزلة حرب الخليج يرى هذه المسألة بمنتهى الوضوح، فكانوا حكّامًا وشعوبًا يهرولون في رضى أمريكا، وكانوا يصرّحون أنّ الأمر بإرادة أمريكا، كما قال قائلهم:

مــــا شـــئتَ لا مــــا شـــــاءتِ الأقـــدارُ ... فــــاحكُمْ فأنــــتَ الواحـــــد القهّـــــارُ

وهم كذلك قالوا هذا المقولة لأمريكا، حكّامًا وشعوبًا إلّا من رحم ربّي، وقال قائلهم: "أمريكا إذا أرادت لشيء أن يكون فيكون"، وذكرت لكم في الدرس الماضي أنني سمعت لأحدهم قصيدة كنت أظن قُبيل نهايتها بقليل أنّها مدح للذّات الإلهيّة، وفي النهاية اكتشفت أنّها مدح لبوش، أضفى صاحبها –هذا الزنديق– على (بوش) صفات الألوهية وصفات الربوبيّة والأسماء والصفات.

---

[٣] صحيح البخاري (٧).

التشابه بين عرب الجاهلية قبل الإسلام وعرب الجاهلية المعاصرة:

نقول هذه النظرة كانت موجودة عند عرب الجاهليّة للفرس والروم، وهي اليوم لدى عرب الجاهليّة المعاصرة في حقّ أمريكا وأوروبا والنصارى واليهود.

في غزوة تبوك عندما خرج النبي ﷺ وأصحابه إلى قتال الروم، وكان ذلك أول لقاء بينهم وبين الروم، قال أحد المنافقين من عرب المدينة: "أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا، والله لكأنّا بكم غدًا مقرَّنين في الحبال" ، يقول هذا الكلام للنبّي ﷺ وللصحابة الكرام،[٣] فلا تستغرب أخي عندما تسمع هذا الكلام من هؤلاء الأقزام.

نقول لذلك تكلّمنا في هذه المسألة، ونصرّ ونكرّر الكلام فيه حتى نحطم لهؤلاء العبيد إلههم ومعبودهم، وحتّى نكسّر لهم صنمهم الأكبر الذي حوله يطوفون وإليه يسعون ويحفدون، وحتى نُبلّغ لهم رسالة أخرى؛ أنّه إذا حُطِّم إلههم ومعبودهم وربّهم فما بالك بالعبيد؟ إذا حُطِّم الربّ فما بالك بالذي يعبده؟ هم أولى أن يزولوا وأن تطأهم الأقدام، فهي رسالة مزدوجة؛ أنّ هؤلاء الذي تعبدونهم من دون الله هم أصنام لا ينفعون ولا يضرّون، وأنّه بزوالهم فلتُكبِّروا على أنفسكم أربعة فأنتم أولى بالزوال والاندحار.

موقف آخر لدى عرب الجاهليّة، تكرّر اليوم وبصورة أسوء، عندما سلك ملك امرؤ القيس الشاعر العربي الجاهلي المشهور، أشعر العرب؛ ذهب يطلب الملك عند ملك الروم، فذهب إلى ملك الروم يطلب منه المعونة والمدد والنصرة، كما يفعل حكّام اليوم؛ يذهبون لأمريكا ويطلبون منها المدد والنصرة، فيقول في أبيات في طريقه إلى ملك الروم:

بكـــى صـــاحبي لمـــا رأى القصـــر دوننـــا وأدركَ أنّا لاحقـــــــــــان بقيصــــــــــــرا
فقـــلت لـــه لا تبـــكِ عينـــك إنمـــا نحـــاول مُلكًـــا أو نمـــوت فنُعْـــذَرَا

كذلك عثمان بن الحويرث ذلك الذي ظهر في قريش وأراد أن يتزعَّمها بالحديد والنار، وأنتم تعلمون أنّ العرب قلّما يدينون لنظام سياسي موحّد يخضعون له، فعثمان بن الحويرث ظهر قبل مبعثه ﷺ وأراد أن يحكم قريش على

---

[٣] سيرة ابن هشام، ت: السقا (٢\٥٢٥).

طريقة فارس والروم، فذهب إلى الروم وهرول وطلب منهم المعونة والنصرة والمدد حتى يحكم قريش وحتى يُخضعهم لحكمه.[٤] [٣]

نفس الصورة تتكرّر اليوم؛ في بداية هذا القرن الذين نحن في أواخره، كما ذهب امرؤ القيس إلى الروم، وكما ذهب عثمان بن الحويرث إلى الروم؛ طالبًا منهم التمكين لحكمه، ذهب مشاهير العرب الذين قامت على أساسهم تلك الدول العميلة التي ما زالت بقاياها بين أظهرنا؛ الشريف الحسين ومبارك الصبّاح وعبد العزيز آل سعود، وننقل لكم نصًّا في غاية الأهميّة، ذكره خير الدين الزركلي صاحب (الأعلام)، المؤرخّ الثقة المشهور، في كتابه (شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز) ١\٢٣٢، وهذا كتاب مهم جدًا وجدير بكلّ طالب حقّ أن يقرأه وأن يتطلع عليه، ففيه من الأسرار الكثير.

وهي رسالة ووثيقة حفظها لنا التاريخ؛ أرسلها (مبارك الصباح) أمير الكويت إلى أمير نجد عبد العزيز آل سعود، ينصحه فيها فيما يتعلق بعلاقته ببريطانيا، والتي كان سيّدة العالم في ذلك الوقت، فأمريكا لم تكن قد ظهرت بعد، وكانوا يسمّونها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وكان البحر الأبيض المتوسط يسمّونه بحيرة بريطانيّة، بل كانت قوة بريطانيا آنذاك أشد من قوة أمريكا الآن، فأمريكا تحكم العالم بصورة غير مباشرة أما بريطانيا فكانت تحكم العالم بصورة مباشرة عبر الاحتلال الظاهري. فكانت بريطانيا هي التي تسود وتحكم العالم، وكانت هي التي تقوم بدور أمريكا الآن، فكانت هي التي تتحكم بمصائر العرب والمسلمين وتتلاعب بالحكّام كما يتلاعب الصغير بالدمى والعرائس.

ومبارك الصباح كان له في تاريخ العمالة قَدَم السَّبْق، كان أقدم من عبد العزيز، وكان عبد العزيز وقتها شابًا صغيرًا لم يظهر على ساحة الأحداث، وكان وقتها يحكم نجد فقط ولم يتوسّع في شبه الجزيرة العربيّة –وكما سنبيّن ونتوسّع في مكان آخر–، فالذي مكّن له من التوسع هي بريطانيا، من أوّل حكمه إلى أن تمت له السيطرة على المملكة العربية السعودية بأكملها.

---

[٣] انظر: قصة عثمان بن الحويرث في (الروض الأنفس)، ت: السلامي (٢\٢٣٠).

فمبارك آل الصباح كان مخضرمًا في سلك العمالة أمّا عبد العزيز آل سعود فكان لا يزل شابًا صغيرًا ناشئًا، ولم يكن له باع طويل من الناحية السياسية، وبالفعل بعضهم أولياء بعض، أرسل مبارك الصباح لعبد العزيز رسالة ينصحه ويرشده ويوجّهه إلى الطريقة المثلى في التعامل مع بريطانيا، وهي مكتوبة باللغة العاميّة، يقول له:

"وأنت الله يسلّمك أمورك مُيسّرة إن شاء الله، والكرنل [أي الكولونيل ويقصد لورنس العرب العميل المشهور] يِبِي يحضر بالبحرين يوم ١٥ ذي الحجّة، وينتظر الخبر منك [أي خبر توقيع الصفقة التي باع فيها البلاد والعباد]، وأنت -الله يُسلِّمك- كل من دخل تحت نظرهم اعتزّ واستراح، مثلما نشوف نحنا وراعي البحرين وعمّان، رفيقهم عامر وعزيز، وهذا إن شاء الله من حسن توفيقك، وإلّا يا ولدي عبد العزيز يطلبون منّا واردات الإحساء والقطيف." اهـ.

ويقول له في رسالة أخرى في نفس الكتاب المذكور في صفحة ٢٣٥: "وأنا الله يسلّمك أبيّن لك عاداتهم؛ ما يُبَيِّنون رغبتهم ولا منافعهم ولا الذي يَبون، ورجالهم أهل الفجر جيد، وأهل سيرة زينة، وكلمتهم واحدة، وإذا أعطوا الجواب يصدقون".

هذا المثال كان في بداية القرن الذي نعيشه؛ القرن العشرين، أمّا الأمثلة التي نعيشها اليوم من هلوع هؤلاء الحكّام الأقزام إلى إرضاء أمريكا وأوروبا فظاهرة؛ في حرب الخليج الأخيرة مع صدّام كان يقول قائلهم: "أمريكا إذا أرادت أن تُخرج أي حاكم عربي من مكانه لفعلت"، وكان البقرة الضّحوك يُهدّد صدّام فيقول : "هذه أمريكا وليست مزّيكا"، يتحدثون بلهجة لا يماري أحد أنّها عبادة لأمريكا من دون الله، تجد أحدهم يقول لنا: "أنتم مجانين؟ تتكلمون عن سقوط الحضارة الغربية وتتكلمون عن سقوط أمريكا؟ كيف جاءت هذه الفكرة إلى عقولكم؟!". وهذا أقل من يقال لكلّ من يتحدَّث عن سقوط الغرب وعن سقوط أمريكا، ولله درّ القائل:

أنا ضـــد أمريكـــا إلـــى أن تنقضـــي	**هـــذي الحيـــاةُ ويوضـــعُ الميـــزانُ**
أنا ضـــدها حـــتى وإنْ رقَّ الحصـــى	**يومًـــا، وســـال الجُلْمُـــدُ الصَّـــوانُ**
بغضـــي لأمريكـــا لـــو الأكـــوانُ	**ضـــمّت بعضـــه لانهـــارت الأكـــوانُ**
هـــي جـــذر دوح الموبقـــات وكـــلُ مـــا	**في الأرض مـــن شـــرٍ هـــو الأغصـــانُ**
مـــن غيرهـــا زرع الطغـــاة بأرضـــنا؟	**وبمـــن ســـواها أثمـــر الطغيـــانُ؟**
حَبَكَـــت فصـــول المســـرحية حبـــكةً	**يَعْيَـــا بهـــا الـــمُتمرّس الفنّـــانُ**

هـــــذا يـكــــــرّ، وذا يــــــفرّ، وذا بهــــــذا ... يستجيـــــــــرُ، ويبـــــــدأ الغليــــــــانُ

حـــــتى إذا انقشـــــع الـــــدُخان مضـــــى لـــــنا ... جـــــرحٌ ، وحـــــلّ محلّـــــهُ سرطـــــانُ!

وإذا ذئـــــاب الغـــــرب راعـــــية لنــــــا ... وإذا جميـــــــع رجالـــــــنا خـــــــرفانُ

وإذا بأصـــــنام الأجانـــــب قـــــد ربـــــت ... وبلادنـــــــا ورجـالهـــــــا القـــــــربانُ

نحن الضحيّة، ونحن من يدفع الثمن، ولهذا ولغيره نتكلم ونصرّ على أنّ تلك الحضارة المزعومة ساقطة لا محالة، فيا من تعبدون أمريكا؛ أمريكا لن تنفعكم ولن تمنعكم من قدر الله النافذ بكم إن شاء الله.

الدراسات الاستراتيجية والأبحاث الاقتصادية تؤكد قرب سقوط الحضارة الغربية:

نقول: ومن تلك المؤشّرات الواضحة الجليّة على سقوط الحضارة الغربيّة وعلى رأسها حضارة أمريكا المزعومة؛ هي تلك الحالة شديدة الانهيار التي يعاني منها اقتصاد الغرب وخاصّة الاقتصاد الأمريكي، ولعلّ هذا العامل من أهم العوامل الدالة على اندحار وانهيار الحضارة الغربية، ولا تغترُّوا بالظاهر، ولا تغترُّوا بما تقرَّر في نفوس المسلمين من أنّهم ملكوا العباد والبلاد وجابوا الآفاق، فعلى التحقيق الحضارة الغربية في أوروبا وأمريكا تعاني من أزمة اقتصادية حادّة، وهذا الأمر ليس من وحي أفكارنا ولا من وحي أوهامنا وإنّما هو من أواخر الدراسات التي أصدروها هم بأنفسهم في أبحاثهم وفي منتدياتهم وفي مؤتمراتهم العلميّة.

من هذه الأبحاث والدراسات؛ دراسة كتبها باحثان أمريكان هما (ديفيد كون) و(وليام بيسمور) ، تحت عنوان ٥
(الحساب الأكبر) ، ونُشرت هذه الدراسة في ذلك الكتاب الذي تُرجم للغة العربية (الحساب الأكبر)، وقد خصّص المؤلفان الفصل الثالث للحديث عن أوضاع أمريكا الاقتصادية تحت عنوان (أمريكا تتبع خطى بريطانيا)، ولعلّ عنوان ذلك الفصل مُنبِئ عن جوهره وعن مضمونه؛ أي أنّ أمريكا ستنهار كما انهارت بريطانيا التي كان إمبراطوريّة لا تغيب

---

[٣] الاسمان غير متأكد منهما لعدم وضوح الصوت.

عنها الشمس، والتي كانت تحكم العالم بدون منافسة، والتي فاقت في وقتها قوة أمريكا اليوم حيث كانت تحكم العالم حكمًا مباشرة بسيطرة عسكرية واقتصاديّة واجتماعيّة، وكانت جيوشها تنتشر في جميع آفاق العالم إلّا في النذر اليسر.

وعقد المؤلفان مقارنة بين أوضاع الإمبراطورية البريطانيّة في أواخر أيّامها في الثلاثينيات وبين أوضاع أمريكا في التسعينيات، وبيّنوا كيف كان سقوط (بريطانيا العظمى) في ذلك الوقت بسبب الانهيار الاقتصادي الذي مُنِيَت به بريطانيا ليس إلّا، الانهيار الاقتصادي كان هو العامل الأولّ والأساسي في فناء واندحار الإمبراطورية البريطانية في أواخر الثلاثينيات، وتنبّأوا بنفس النتيجة لأمريكا في أواخر التسعينيات، وقد تتأخر المسألة وقد تطول، المهم أن نوقن بوعد الله ونستبشر بهذه الأمور.

إلى أن قالا: "هناك تشابه لحد كبير بين الوضعيّة الاقتصاديّة للإمبراطورية البريطانية في أواخر أيّامها وبين الوضع الحالي لأمريكا بالفعل، إنّ أمريكا تعاني من الأعراض الكلاسيكيّة لأمّة في طريق الانحدار" اهـ. وهذه شهادة القوم بأنفسهم.

وكذلك تكلّم الكاتبان عن الحجم الهائل لديون أمريكا، وهذه معلومة ربّما تكون غير منتشرة عند الكثير من المسلمين، أمريكا ستُعتبر في أواخر هذا القرن في سنة ٢٠٠٠ الدولة الأولى في العالم مديونيّة، حجم العجز في الميزانيّة الأمريكيّة سنويًا يبلغ ١٠٠ مليار دولار، والعجز هو الفرق بين الإنتاج والاستهلاك، يعني يستهلكون زيادة عن ما ينتجون بـ ١٠٠ مليار دولار، فتصبح الخزانة الأمريكية مديونة بهذا المبلغ سنويًا، وهذا بغضّ النظر عن حجم الفوائد.

فتكلّم المؤلفان عن الحجم الهائل للديون الأمريكيّة وبيّنوا أنّه أكبر بكثير من الإنتاج، وإذا استمرّ الوضع على هذا النحو فإنّ دفع الفوائد وحده سيستغرق قيمة الإنتاج بحلول العام ٢٠١٥، يعني كل ما ينتجوه سيعطوه قيمة لسداد الفائدة ويبقى رأس المال كما هو.

النبي –عليه الصلاة والسلام– عندما أرسل رسالة إلى كسرى يدعوه فيها إلى الإسلام؛ كان جواب كسرى أن مزّق رسالة النبي ﷺ ثمّ أرسل إلى عامله في اليمن وأمره أن يذهب إلى النبي ﷺ وأن يقبض عليه ويجرّه إلى كسرى، فالشاهد أنه عندما ذهب إلى النبي قال له النبي–عليه الصلاة والسلام– : (إنّ ربّي قتل ربّك)، فسمّى كسرى ربًا لهذا

العامل الذي كان يخضع لملكه، ونفس العبارة نقولها نحن اليوم لهؤلاء الذي يعبدون الغرب من دون الله، نقول لهم: "إنّ ربنا وإلهنا ومليكنا هازم ربّكم ومليككم وإلهكم ولا ريب، فارتقبوا إنّ مرتقبون".

نقول كذلك أنّ هناك دراسة أخرى كتبها باحث غربيّ متخصصّ في مجال الاقتصاد اسمه (لافتر فورو) ، تحت عنوان (رأس برأس) أو (المتناطحون)، تُرجمت أيضًا للغة العربية، وهذه الدراسة تتكلم عن المعركة الاقتصادية القادمة بين اليابان وأوروبا وأمريكا، وخصّص الفصل الخامس في هذا الكتاب للحديث عن الاقتصاد الأمريكي، تحت عنوان (الولايات المتّحدة الأمريكيّة في حالة انهيار)، وهذه كلها دراسات من عندهم هم بأنفسهم، وهي دراسات أجدّ وأشدّ ما تكون، كلها دراسات جديّة من قوم معروف عنهم الإتقان في مجالهم، فذكر هذا الباحث أنّ العجز السنويّ في الميزانيّة الأمريكيّة يبلغ ١٠٠ مليار دولار.

كذلك هناك دراسة ثالثة تحت عنوان (نشوء وسقوط القوى العظمى) للمؤلف بول كينيدي، وهذا الرجل في كتابه المذكور ذكر رقمًا خياليًا عن حجم الديون الأمريكيّة، قبل أربعة سنوات كانت الديون الأمريكية ٤ ترليون دولار، أي ٤ ألاف مليار دولار، ويقول صاحب الكتاب: "بعض الأصوات تُحَذِّر أن يصل الدَّين الأمريكي بحلول عام ٢٠٠٠م إلى ١٣ ألف مليار دولار"؛ أي ١٣ ترليون دولار وذلك بعد ثلاث سنوات فقط، وهو رقم فوق الخيالي والفلكي، ثمّ يذكر أنّ الفائدة لوحدها ستصل بعد ثلاث سنوات إلى ١,٥ ترليون.

ثمّ قال في آخر هذه الدراسة يستدل بضعف أمريكا وانهيارها من الناحية الاقتصادية على انهيارها من الناحية السياسية وعلى اختلال ميزان القوى العالمية، وهذا أمر معروف فأول ما يقضي على الدول والممالك الاقتصاد، فيقول: "فإذًا لا يمكن مطلقًا أن تبقى التوازنات العالميّة على ما هي عليه، وإنّ من حمق ساسة الدول أن يفترضُوا أن الوضع سيبقى هكذا إلى الأبد؛ بل أمريكا على حافة الانهيار"، وهذا الكلام كأنّه موجَّه للمغفّلين العرب، فهم يعتقدون أن أمريكا ستظل حاكمة للعالم، لأنهم يدورون في فلكها، ومصيرهم مرتبط بمصيرها، تمامًا مثلما يضع الإنسان كل ثقته وكل توكله وكل اعتماده على ربّه، فهم كذلك يضعون كل ثقتهم وكل اعتمادهم وكل توكلهم على أمريكا.

[٣] الاسم غير متأكد منه لعدم وضوح الصوت.

وهذا الدَّين كفيل بأن يقضي على أمريكا كدولة عظمى، إن لم يقضِ عليها كدولة من الأساس، وهذا الرجل وضع عدة احتمالات يمكن أن تلجأ إليها دولة على وشك الانهيار نتيجة هذا العجز في الميزانية:

- **الاحتمال الأول**: أن تقوم الحكومة الأمريكيّة بخفض المرتبات لجميع الوظائف إلى نسبة ٣٠% على الأقل وترفع الضرائب بنسبة ٥٠%، يعني تنقص ٧٠% من المرتبات ويبقى ٣٠% فقط، فهل تتصوروا هذا الرقم؟ وهل يستطيع الأمريكي أن يعيش بهذا الرقم؟ يستحيل على الأمريكان الذين تعوّدوا هذه الحياة واستمرأوا عليها وتعودوا على الرفاهية التي بلغت حدّا خاليًا وتعوّدوا على ملكيّة كلّ شيء، ثم بعد ذلك ترفع الضرائب بنسبة ٥٠%!!، وهذا معناه انهيار أمريكا من الداخل لأن أول من ستُفرض عليه هذه الضرائب هو الشعب، ثمّ قال أنّ هذا الحل يستبعد أن تلجأ إليه أي حكومة أمريكيّة.

- **الاحتمال الثاني**: إعلان العجز أي إعلان حالة الإفلاس، وهذا معناه هبوط أمريكا اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، ومعناه كذلك سقوط الدولار.

- **الاحتمال الثالث**: هو تَسيِيل العملة الأمريكية، يعني يطبعون كميّة ضخمة من الدولارات، وأنتم تعرفون أن لكلّ دولة غطاء من الذهب تطبع عملتها على أساس هذا الغطاء، والدولة التي تخرج على القانون تطبع عملات زائدة ليس لها رصيد، وهذه اللعبة تلجأ إليها بعض الدول المتنمّرة المتمرّدة، فقال هذا احتمال ثالث هو أرجح الاحتمالات التي يمكن أن تلجأ إليها الحكومة الأمريكيّة، فتقوم بطبع كميّة كبيرة من الدولارات حتى تغرق السوق التجاريّة، قال وهذا أيضًا معناه سقوط الدولار، لأنّه لن تصبح له قيمة وسيصبح مثل العملة العراقية، ثم قال وهذا معناه سقوط اقتصاديات كل الدول التي تدور في فلك أمريكا، ومنها الدول العربية وعلى رأسها دول الخليج.

وهذ الانهيار الاقتصادي يحدث رغم الدعم الهائل الذي يُعطى لأمريكا صباح مساء من دول الخليج دول النفط والبترول، فهذه الدول اليوم تدعم أمريكا وتُنفق عليها كل صباح ومساء، ولو رفعت هذه الدول دعمها ولو قليلًا عن أمريكا لكان الانهيار أسرع لأمريكا، ولكن هذا الدعم لن ينقذ أمريكان ولن يمنعها من الانهيار.

هناك دراسة رابعة كذلك تحت عنوان (الإفلاس)، كتبها كاتب أمريكي، وقالت صحيفة (نيويورك تايمز) أنّ هذه الدراسة من ضمن أكثر الكتب انتشارًا في العالم، ومضمون هذه الدراسة أن أمريكا على حافّة انهيار اقتصادي، وقال

أنّ انهيار أمريكا سيُسبِّب (نكبة) اقتصاديّة عالميّة، لأن أمريكا هي سيّدة العالم الآن فإذا انهار اقتصادها فسيتبع هذا انهيار اقتصاد العالم؛ وهذا ما يرضينا وما نُحبُّ وما نتمنّى.

الصراع المحتوم بين الإسلام والغرب:

نقول: هم يعرفون هذه الحقيقة، ويعرفون أنّ نجمهم على وشك الأفول، وأن حضارتهم زائلة لا محالة، والأخطر من ذلك أنّهم يعرفون أنّ البديل يتمثّل في الإسلام؛ قبل سقوط الاتّحاد السوفييتي والشيوعيّة كان الشعار الذي يردّده الساسة والمفكّرون وصنّاع القرار الأمريكي استنفارًا لشعوبهم (الروس قادمون)، أمّا اليوم فصاروا يقولون (المسلمون قادمون)، وهذا أولًا يعطيك مدى خوفهم وهلعهم من المارد الإسلامي، أنْ يخرج من أقفاصه ومن الحديد الذي كُبِّل به وأن ينطلق فاتحًا يجوب الشرق والغرب، فهم يخافون من هذه المسألة ويعرفون أنّها قادمة لا محالة.

ولذلك خرجت كثير من الدراسات تُحَذِّرُ من هذا الأمر، وتضع الحلول والاقتراحات في سبيل الوقوف أمام المد الأصولي المتنامي، من أشهر تلك الدراسات (الحساب الأكبر) الذي أشرنا إليه من قبل والذي بَشّر بسقوط أمريكا، فعقد المؤلّفان في الفصل السابع دراسة تحت عنوان (محمّد يخنق ماركس) ثمّ قالا: "التقسيمة الجديدة للعالم الشمال والجنوب"؛ من قبل كان التقسم خلال الحرب الباردة الشرق والغرب، فقالوا هذه التقسيمة انتهت بنهاية الشيوعية والآن هناك تقسيمة جديدة هي الشمال والجنوب ويعنون بالجنوب العالم الإسلامي، وبيَّن المؤلّفان في دراستهما ما أكّدته الدراسات الأخرى والتي بلغت المئات، كلّها تدور وتتركّز في نقطة واحدة وهي أنّ الإسلام هو الخطر القادم على الحضارة الغربيّة وخاصّة على أمريكا المتزعّمة للعالم، وقال هذان الكاتبان: "أتباع محمّد تجاوزا أتباع ماركس، لقد انتهت الماركسيّة، لم يكن ماركس رسولًا كاذبًا فحسب؛ بل كان كغيره من رُسُل العلمانيّة قصير العمر، بينما تاريخ الإسلام يقاس بالقرون".

فهم يعرفون كذب ماركس فهو صنيعهم ويعرفون تاريخه، ومع هذا لا يزال بعض العرب يتشبّثون بالاشتراكية!!، وكلامهم طعنة في صدر العلمانية العميلة المرتدّة، فالغربيّون أنفسهم يقولون لتلك الأنظمة بصورة غير مباشرة: أنت زائلة لا محالة، رغم أن هذه الأنظمة تقوم عليهم ورغم أن المصلحة بينهم مصلحة متبادلة ومصيرية.

كذلك دراسة أخرى ظهرت في الآونة الأخيرة تنحو نفس المنحى الذي ذهب إليه المؤلفان السابقان، إلّا أنها راقت رواجًا عامليًا وانتشرت انتشارًا واسعًا، وكُتب في تأييدها وفي الردّ عليها كثير من الدراسات الأخرى، وهذه الدراسة كتبها (صامويل هنتنجتون) مدير معهد الدراسات الاستراتيجيّة في جامعة هارفارد الأمريكيّة، هذا الرجل كتب في البداية مقالًا شهيرًا أثار انتباه العالم في شرقه وغربه في مجلة (فورين آفيرز) سنة ١٩٩٣م، أي قبل أربعة سنوات فقط، ثمّ ضمّن هذه المقالة في كتاب وزاد فيها تقريرًا وتأصيلًا وفقًا لآرائه ثم نشره بنفس عنوان المقال (صراع الحضارات) وأصدر الكتاب عام ١٩٩٥م أي منذ سنتين، والرجل ما زال على قيد الحياة، وما زال في منصب مدير مركز الدراسات الاستراتيجيّة في جامعة هارفارد الأمريكيّة.

والكتاب تحت عنوان (صراع الحضارات)، وملخصه أنّه يريد أن يقول أنّه بعد سقوط الشيوعيّة لم يستمر الصراع بين الغرب والماركسيّة بل أصبح الصراع بين الغرب وبين الحضارات الأخرى، ووضع ستّة حضارات قال أنها هي الحضارات المؤهّلة للصراع حول السيطرة على العالم؛ الحضارة الصينية والحضارة الهنديّة والحضارة اليابانيّة والحضارة السلافيّة والحضارة الإسلاميّة والحضارة الغربية.

ثم قال بعد أن تكلّم في كل هذه الحضارات: "والصراع في النهاية سوف ينحصر بين حضارتين؛ بين الحضارة الإسلاميّة وبين الحضارة الغربيّة"، ثمّ ذكر مقولة في غاية الأهميّة فقال: "إنّ الحضارة الإسلاميّة تُشكّل تهديدًا حقيقيًا للغرب، وإنّ المسلمين لا يقبلون نظريّة التحديث، ولذا فالبديل الأوحد هو الصراع مع الحضارة الغربيّة، معتبرًا أن للإسلام حدودًا دمويّة، وإنّ نظرية الجهاد في الإسلام يمكن أن تؤدّي إلى تنافس وتناحر أكبر مع الحضارة الغربية".

وهذا أيضًا مبشّر لأنّه قرّر وجزم وأكّد أن تلك الأنظمة المرتدّة على وشك السقوط، وهو تكلّم عن هذه المسألة في أول الكتاب وعقد فصلًا عن الصراع القائم في بلاد الإسلاميّة بين الأنظمة الحاكمة وبين الجماعات الأصوليّة المتطرفة، ثم قرّر في النهاية أنّ الصراع سيكون في النهاية بين الحضارة الغربيّة وتلك الجماعات الأصوليّة، فالرجل من

منظوره ومن تأمّله حكم أنّ تلك الأنظمة على وشك السقوط، وأنّ الذي سيخلُفُها ليس تلك التيارات العلمانيّة وإنّما الذي سيخلفها هي الأحزاب الأصولية المتشدّدة.

وهم يعرفون الحقيقة التي ما زال بعض المسلمين لا يعرفها، فالرجل حسم الحلّ ولم يقل أنّ الحل في المفاوضات وأن نجلس نحن وأنتم ونحاول أن نصل إلى حل بيننا، فالكافر يرى هذه الحقيقة، ويعرف سنّة التدافع، وهي سنّة قدريّة وشرعيّة؛ فحتى الأفكار الأرضية التي لم يُنزل بها الله من سلطان لا تفرض نفسها ولا تُثبت وجودها إلّا بلغة القوّة، فالمسألة معروفة كما قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} .[٧]

والرجل يقول أنّ للإسلام "حدودًا دمويّة" فهو يفهم طبيعة الإسلام التي لا يفهمها البعض ويستحي منها البعض، (بُعثت بالسيف)، (جئتكم بالذبح)، (الضحوك القتّال)، وقال ﷺ كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله) .[٨][٣]

ثم يرى الرجل ويقرّر أنّ النصر سيكون من نصيب الغرب في النهاية، ونقول له:

وســــــوف تـــــرى إذا انجلـــــى الغبـــــارُ أفـــــــــرسٌ تحتـــــــك أم حمـــــــارُ

المهم هذه كانت دراسة من ضمن عدّة دراسات كلّها تُحذّر الغرب وتُخوّفه من الإسلام، وقضيّة تخوّفه هذه هي بشارة لنا أيضًا، فالغرب وخاصّة أمريكا يعيشون –خاصة في السنوات الخمس الأخيرة– في حالة رعب شديد من شيء اسمه إسلام، حتى الأطفال أصبحوا يرضعون هذا الرعب مع الحليب، وهذا مصداق قوله –ﷺ: (نُصرتُ بالرُّعب) .[٩][٣]

يحدّثنا أحد الإخوة ممن كان يعيش في أمريكا ويحمل الجنسيّة الأمريكيّة وهو عربيّ الأصل، والأخ ملتحٍ وملتزم بالهَدْي الإسلامي الظاهري، فقال: "ما دخلت محفلًا ولا سوقًا إلّا وأُصيب الناس بالهلع والذعر من مجرد رؤيتي".

---

[٣] سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

[٣] صحيح البخاري (٢٥)، صحيح مسلم (٣٦).

[٣] صحيح البخاري (٣٣٥)، صحيح مسلم (٥٢٣).

قال: في أحد الأسواق (سوبرماركت) جاءتني إحدى النساء تُقدّم خطوة وتؤخّر أخرى وتنظر لي كأنّني شبح ووجها صار أحمر اللون، فلمّا رآها جلس ينظر إليها ويضحك، فاقتربت منه وقالت له: "أنت مسلم؟"، قال لها: "نعم"، فقالت: "أنتم المسلمين الذين يقال عنكم أنكم تذبحون الناس وتمصّون دمائهم؟" فقال لها: "نعم"!

وقال مرّة أخرى كان يسير في السوق فوجد امرأة ومعها أبناؤها، فرآه الطفل فهرول إلى أمّه وقال لها: "ماما ماما؛ هذا الذي تخوّفوننا به"!.

يقول هم يعيشون في حالة رعب كبير من الإسلام، ونحن ذكرنا لكن من قبل أنّه في حرب الخليج والتي كانت مسرحيّة والتي لم يقاتل فيها الأمريكان ولم يروا قتالًا وكانوا في الصفوف المتأخّرة يتقدّمون فقط لاستلام المواقع فقط، ثم عندما رجعوا إلى بلدهم تقول الدراسات التي أصدرتها وزارة الدفاع بنفسها أن ١٩% من هؤلاء الجنود الأشاوس أصبحوا غير صالحين لدخول القتال، رغم أنّهم لم يباشروا القتال، ورغم أنّ حكومة خادم الحرمين كان تقوم بالترفيه عنهم على أعلى مستوى، ورغم كلّ ذلك ١٩% منهم باعترافهم أصبحوا غير صالحين لمباشرة القتال، فبالفعل القوم يعيشون حالة من الخوف والهلع من الإسلام.

وهذه مسألة طبيعيّة، فهؤلاء قوم حياتهم كلها متعلقة بالمادّة، وليس عندهم شيء بعد الموت، فكيف لا يخاف؟ فسيخاف وسيشتد خوفه ويموت من الخوف، فالرجل لا يعرف لا دينًا ولا آخرة، وكلّ حياته منحصرة في الأكل والشرب والنكاح، كما قال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} [٤]، فعندما تريد أن تنتزع منه هذه الحياة سيشتد خوفه، وحُقَّ له أن يشتدّ خوفه.

المهم أنّ هذه كلّها بشارات لسقوط هذه الحضارة المزعومة، وغيرها كثير واكتفينا بهذا العرض الموجز لضيق المقام. وعندما قام كاتب أمريكي وهو ياباني الأصل اسمه (فرانسيس فوكو ياما)، كتب كتابًا سمّاه (نهاية التاريخ)، يقول فيه أنّ روسيا العدو الأول لأمريكا قد انتهت، وأنّه بسقوط الشيوعيّة لم يبقَ لأمريكا منافس ولا منازع للسيطرة على العالم، ولذلك فإنّ الحضارة الغربيّة سيُكتب لها التخليد والأبديّة في حكم العالم. هذا مجمل كلامه.

[٤] سورة البقرة، الآية: ٩٦.

وما أن صدر هذا الكتاب وظهرت طبعته الأولى بهذا التاريخ إلّا وقُوبِل بسيل جارف حادٍّ من الانتقادات والتسفيه من مئات مُفكّري أمريكا، الذي ردّوا عليه بمنتهى الشراسة، بل وصرّح بعضهم أنّ الكاتب كاذب لدرجة الطفولة، وأنّ فرحه هذا بعيد كل البعد عن النظرة العلميّة الجادّة، وردّوا عليه بأدلة يطول المقام بذكرها من النواحي السياسية والاقتصاديّة والعسكريّة ومن جميع الأوجه؛ كلّها تؤكّد أنّ الحضارة الغربية وعلى رأسها أمريكا على وشك السقوط، وأنّه لن يُكتب لها الاستمرار على أحسن تقدير في ثلاثة عقود القادمة. فهذا أيضًا كان من داخل صفوفهم.

بل إنّ (بريجنسكي) وهو مستشار الأمن القومي السابق الأمريكي، وهو بمنصب بأعلى درجة من الخطورة، وهو صاحب نبوءة سقوط الاتّحاد السوفييتي حيث كتب كتاب (السقوط العظيم) تنبّأ فيه بسقوط الاتحاد السوفيتي، ثمّ تمّ السقوط بعد ذلك، =هو بنفسه كتب كتابًا آخر قبل ثلاث سنوات تحت عنوان (خارج نطاق السيطرة) تكلّم فيه عن أحوال العالم بعد سقوط الشيوعيّة، وقال أن مصير العالم وخاصّة الحضارة الغربية وخاصّة أمريكا مصيرٌ أشدّ ما يكون تمزقًا وتفكّكًا وانهيارًا واندحارًا، وتنبّأَ أن أمريكا خاصة والغرب بصورة عامة على حافّة الانهيار والانحدار.

ونحن من عندنا نقول أن هذه مسألة متوقَّعة بل هي التدرج الطبيعي لسنة الله في الأمم والملوك، فما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، وإذا تمَّ شيءٌ فانتظر نقصانه، وكما قال أبو البقاء الرندي في مرثيته الرائقة:

لِكُــــلِّ شَــــيءٍ إذا مـــا تَـــمّ نُقصـــانُ   **فَــــلا يُغَـــرَّ بِــــطِيبِ الْعَــــيْشِ إنســـانُ**
هِـــــيَ الأُمُـــورُ كَمـــا شاهَدْتَهَـــا دُوَلٌ   **مَــــنْ سَـــرَّهُ زَمَـــنٌ سَـــاءَتْهُ أَزْمَـــانُ**
وَهَـــذِهِ الـــدَّارُ لَا تُبْقِـــي عَـــلَى أَحَـــدٍ   **وَلا يَـــدُومُ عَـــلَى حَـــالٍ لَهَـــا شَـــانُ**
أَيْـــنَ المُلُـــوكُ ذَوُو التِّيجَـــانِ مِـــنْ يَمَـــنٍ   **وَأَيْـــــنَ مِنْهُـــــمْ أَكَالِيـــــلٌ وَتِـــــيجَانُ**
وَأَيْــــنَ مَــــا شَـــــادَهُ شَـــدّادُ فِي إِرَمٍ   **وَأَيـــنَ مَـــا سَاسَـــهُ فِي الفُـــرْسِ سَاسَـــانُ**
وَأَيْـــنَ مَـــا حَـــازَهُ قَـــارُونُ مِـــنْ ذَهَـــبٍ   **وَأَيْـــــنَ عَــــادٌ وَشَــــدَّادٌ وَقَحْطَــــانُ**
أَتَـــى عَـــلَى الْـــكُلِّ أَمـــرٌ لا مَـــرَدَّ لَـــهُ   **حَـــتَّى قَضَـــوْا فَكَـــأنّ الْقَـــوْمَ مَـــا كَـــانُوا**
وصـــار مـــا كـــان مـــن ملـــك ومـــن ملـــك   **كمـــا حكـــى عـــن خيـــار الطيـــف وســـنان**

فهذه المسألة هي التدرج الطبيعي لسنة الله في الأمم والملوك، أنه ما أن ترتفع أمّة أو مملكة إلا ويعقب علوَّها وارتفاها انخفاضها، وهي سنة من طبائع البشر ومن طبائع الأمم ومن طبائع الدول، فأنت ترى الإنسان يبدأ طفلًا ثم

يشبُّ فيصبح صبيًا ثم يتطور فيصبح شابًا، ثم بعد ذلك يبدأ خط الانحدار والانهيار كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} .[١]

وكذلك الممالك والأمم، فنفس هذا الخط البياني الذي يعتري الإنسان يعتري الممالك والأمم، وهذا الأمر شاهدناه حتى في الممالك الإسلامية وحتى في الخلافة، كانت في أوج قوّتها ثمّ الضعف يدبُّ فيها حتى انقضت، رأينها في الخلافة الأموية وفي الخلافة العباسية وفي الخلافة العثمانية التي كانت تحكم العالم، وكانت موسكو تدفع لها الجزية، طرقوا أبواب أوروبا أكثر من مرة، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من دخول قلب أوروبا ومن السيطرة عليه، ورغم ذلك بعد أن بلغت الغاية في قوتها بدأ الضعف يدبّ فيها.

نفس الأمر يتكرّر مع الممالك الكافرة، بل الممالك الكافرة أحقّ بهذه السنة من الممالك الإسلامية {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} .[٢] [٤]

والناظر كذلك إلى سنة الله في الأمم الغابرة؛ عاد وثمود وفرعون؛ يجد أنهم بلغوا من القوة شيئًا خياليًا ثم أعقب هذا العلو الانهيار والانحدار، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} ، فبلغوا من القوة والعلوّ والتجبّر أن يقول في حقهم المولى تعالى: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}، والله تعالى بالمرصاد للممالك الغابرة وبالمرصاد للمماليك الحاضرة.

كذلك قال تعالى في قوم عاد: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} ، فهم كانوا بالفعل جبّارين، ورغم ذلك أتى عليهم أمرٌ لا مرد له فكأنّ القوم ما كانوا، فهذه سنة الله في خلقه، وهي من التدريج الطبيعي في حياة الأفراد وفي حياة الأمم والملوك.

---

[٤] سورة الروم، الآية: ٥٤.

[٤] سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

[٤] سورة الفجر، الآيات: ٦-١٥.

[٤] سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨-١٣٠.

يقول ابن خلدون مبيّنًا هذه الحقيقة: "وإذا كان الهرم طبيعيًا في الدّولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطّبيعيّة كما يحدث الهرم في المزاج الحيوانيّ، والهرم من الأمراض المزمنة الّتي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنّه طبيعيّ، والأمور الطّبيعيّة لا تتبدّل." اهـ. [٥] [٤]

أرى أن الوقت قد ضاق، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

---

[٤] تاريخ ابن خلدون، ط: دار الفكر (١\٣٦٢).

الدرس الخامس: حال العرب قبل البعثة الشريفة

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، تكلمنا في ضمن تلك المقدمات بين يدي أحداث السيرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم؛ تكلّمنا أول ما تكلّمنا عن أحوال العالم قبل مبعثه ﷺ، ثمّ تلكمنا عن أحوال العالم المعاصر، ثم تكلمنا عن بعض تلك المبشرات التي تخرج لنا من رحم الجاهلية بنفسها.

وسبحان الله، حتى تستيقنوا بوعد الله لهذا الدين وأتباعه؛ أحد الإخوة بثّ لنا بشرى تدخل في تلك البشارات التي كنّا نتحدث عنها في الدرس الأخيرة، الأخ يقول أنه استمع في الإذاعة التركية هو وبعض الإخوة خبرًا مفاده أنّ ٣٩ شابًا أمريكيًا قاموا بعملية انتحار جماعي، فانظروا حتى تستيقنوا بهذا الكلام الذي نقلناه لكم وتعلموا أنّ هذه الحضارة هي حضارة مهترئة؛ ٣٩ شابًا أعمارهم بين ١٨ و ٢٤ يعني في قمة الشباب، طاقة رهيبة جدًا معطلة في تلك الحضارة العفنة؛ يقومون بالانتحار ذبحًا، فذبحوا أنفسهم في ولاية كاليفورينا.

اليوم سنتكلم قبل الشروع في أحداث السيرة النبويّة الشريفة عن حالة العرب قبل الإسلام، ولعلها تكون آخر مقدمة من ضمن تلك المقدمات التي سبقت، وكما هدفنا من استعراضنا لحالة العالم بصفة عامّة قبل الإسلام كذلك نهدف في استعراضنا لحالة العرب بصفة خاصّة قبل الإسلام؛ نهدف إلى معرفة حقيقة هذا الدين الذي غيّر هذه النفسيّة الجاهليّة، وغيّر هذه الأحوال التي سنستعرض البعض منها استعراضًا سريعًا، غيّرها بلمح البصر بالنسبة إلى المقاييس الزمانيّة، فكان أحدهم يخرج من جاهلية جهلاء وضلالة عمياء وينقلب مباشرة إلى هذا الدين الساطع، إلى قمة الإسلام، إلى التمسّك بالعروة الوثقى حقًا وصدقًا.

ولكم أن تقارنوا بين حالهم وبين حالنا نحن الذين نشأنا وترعرعنا في الإسلام كما ندّعي، ولكم أن تقارنوا بين تلك النقلة النوعية التي انتقلوا إليها وبين ما نعيشه نحن الآن؛ مازلنا نتلمس الخُطوات الأولى للتمسك بهذا الدين، رغم أنّنا ندعي أننا مسلمون أبًا عن جد إلى آخر هذه السلسلة الطويلة.

الحالة السياسية للعرب قبل الإسلام:

نقول كان العرب يعيشون في جزيرتهم العربية متفرّقين لا يجمع بينهم رابط، وليس بينهم لغة مشتركة إلا لغة القوة، فالقوي هو الذي كان يفرض كلمته ومن ثمّ يفرض سيطرته ومن ثمّ تصوراته ومعتقداته، وكانت الحروب تقع بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يتعلّقون بالآخرة ولا يعرفون بعثًا ولا نشورًا، فحرب البسوس المشهورة من أيام الجاهليّة الأولى التي وقعت بين قبيلتين من أكبر القبائل العربيّة –بكر وتغلب– كان سببها ناقة، ومن أجل تلك الناقة قامت تلك الحرب الطاحنة التي استمرت ٤٠ عامًا. الحرب الثانية حرب داحس والغبراء وقامت من أجل فَرَس، ومن أجل هذا الفرس قامت حرب طاحنة ترتبت عليها آثار جسيمة في الأموال والنفوس بل وفي الأعراض حيث كان المنتصر يستبيح أعراض المنهزم.

وكان الحُكم في الجزيرة العربية يقوم على النظام القبلي، فأفراد القبيلة هم الذين يحكمون ويأمرون وينهون، ومن طبائع الحكم القبلي –حتى الآن– أنهم يثأرون ويمتشطون أسلحتهم مع أقل هيعة وفزعة دفاعًا لا عن شيء إلا عن النخوة القبليّة، فإذا جاءهم أحدهم منتصرًا بهم هبّوا لنجدته سواءً كان ظالمًا أو مظلومًا، كما قال قائلهم:

لا يسـألون أخـاهُم حـين ينـدُبُهم في النائبـات علـى مـا قـال برهـانا

فبدون أي برهان وأيّ تبيّن يقومون بنصرته والقتال معه، فهم يطبقون مبدأ: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا" ولكن بمعناه الخاطئ، دفاعًا عن شرف القبيلة كما يقولون.

فكان الأصل في نظام الحكم في الجزيرة العربية أنه نظام قبلي أو ما يعرف بنظام المَشْيَخَات، ولكن كان هناك بعض الممالك القليلة، والتي كانت تنحصر في اليمن والشام وفي الحيرة، هذه المناطق الثلاث هي التي عرفت نظام الممالك، فكان نظام الحكم فيها نظامًا مرتّبًا نوعًا ما؛ يتربّع على رأس هذا النظام ملك، إلّا أنّ هذا الملك لم يكن صاحب الكلمة والآمر الناهي والسيد المطاع حقًا، وإنّما كان هذا الملك العربي يُدِيرُ الحكم في بلاده وعلى شعبه نيابةً عن السيد الفارسي أو الرومي، ونفس الأمر يحدث الآن في بلادنا.

فاليمن والحيرة كانتا تخضعان للفرس، فكسرى هو الذي يُملي أوامره ونواهيه وما على هؤلاء إلا أن يقوموا بتطبيقها وتنفيذها، وكذلك الشام كانت خاضعة لسيطرة الروم، فكان قيصر هو الذي يملي تصوراته وسياساته على الشام؛ ويقوم الملك العربي بالتنفيذ، والذي كان كما قال أحدهم: "كالطائر في قفص من ذهب"، فصحيح أنه قائد وملك إلا أنه في داخل فقص وإن كان هذا القفص من ذهب، المهم أنه مأسور وأنه مأمور وعبد يخضع للسيد الكبير الآمر الناهي؛ سواءً الفارسي أو الرومي، نفس الصورة التي نراها اليوم.

بل إنّ أشهر ملوك العرب في تلك الفترة وهو النعمان بن منذر رأس المناذرة، والذي له صيتٌ وصولة في الجزيرة العربية، وله أيام مشهورة، هذا الملك المشهور يصل به الحال إلى أن يقف ذليلًا خاضعًا مُنكسًا رأسه أمام باب كسرى، ينتظر ما يفعل به كسرى، وكانت النتيجة أن أخذه كسرى ورماه في سجنه حتى مات.

كانت تلك الممالك في العراق الشام تتنازعها الفرس والروم، فكانت العراق للفرس وكانت الشام للروم، وكانت الحرب تدور بين الرأسين، بين فارس والروم، وكان العرب يحاربون بالنيابة، نفس الصورة التي كانت في ظلّ الحرب الباردة بين أمريكان وروسيا؛ فالحرب الباردة بين الرأسين وبين العملاقين ولكن هذه الحرب كانت تدور بصورة أكثر شراسة على الأرضي العربية، كما يسمّونها الحرب بالوكالة، فهذا نظام اشتراكي وهذا نظام رأسمالي؛ كلاهما يتحاربان لصالح أمريكا وروسيا.

فنفس الصورة كانت تتمُّ في الجزيرة العربية قبل مبعثه ﷺ، فكان أهل الحيرة أو المناذرة يحاربون نيابة عن الفرس، وكان أهل الشام أو الغساسنة يقاتلون نيابة عن الروم.

في أحد تلك المرات أمر كسرى النعمان بن منذر بجملة من الأوامر، لم يستطع أن يقوم بتنفيذها، واعتذر لسيده وولي نعمته عن القيام بتلك الأوامر والخضوع لها، فما كان من كسرى إلّا أن غضب عليه غضبًا جمًا، ويذكر القصّة ابن الأثير في (الكامل في التاريخ)، فاضطر النعمان نتيجة لهذا الغضب من كسرى أن يطوف بسائر القبائل العربية يطلب منهم النجدة والمنعة، ويطلب منهم أن يعصموه من غضب كسرى، وكلّ تلك القبائل التي تنتفض غضبًا إذا مُسّت كرامتها تعجز أن تقدِّم له يد المساعدة، وكلّها تتبرأ منه، وترى أنه كالجمل الأجرب الذي سيسبّب لها البلاء والمرض بسبب غضب السيّد الفارسي.

وبالفعل لا يجد منهم العصمة والمنعة، فيضطر أن يُودِع أهله وماله لدى أحد شيوخ القبائل العربية وهو هَانئ بن مسعود الشيباني، ثم يتوجّه وحده طائعًا مختارًا ليتلقّى مصيره عند كسرى، فيقف عند باب كسرى ذليلًا مطأطئ رأسه ينتظر ماذا سيفعل له ذلك الطاغوت الفارسي، فما كان من الطاغوت الفارسي إلا أن أخذه ووضعه في السجن، وتركه في السجن مُهملًا حتى مات، والعبرة لمن يعتبر، وكل لبيبٍ بالإشارة يفهم، كما يحدث اليوم عندما تتغيّر نظرة أمريكا لبعض الأنظمة تقوم باستبدالها بنعل جديد، هو نعل ولكنه جديد يناسب المرحلة الجديدة، ولا تحتفظ للنعل القديم بأدنى اعتبار، فكلها نعال تتغير حسب المصالح.

فنفس الصورة ولكنها اليوم مع أمريكا وروسيا وبالأمس كانت مع فارس والروم، ولم يكن يوم ذي قار في تاريخ العرب إلا طفرة؛ استطاعوا فيها أن يقفوا أمام الفرس وأن يُنزلوا بالفرس هزيمة كبيرة، ولكنه كان في جملة هذا التاريخ شيء لا يذكر، ففي الأصل أنهم كانوا يخضعون إمّا للفرس وإمّا للروم، حتى خيرات البلاد وحتى الموارد الأصليّة والمقوّمات الاقتصادية كانت تُستخدم لصالح الفرس أو لصالح الروم.

هذا عن حالة تلك الممالك العربية في اليمن وفي العراق وفي الشام، أما سائر الجزيرة العربية فلم تعرف هذا النظام، وإنّما كما قلنا كانت تعرف نظامًا أشبه ما يكون بنظام المشيخة أو النظام القبلي والذي له بقايا موجودة حتى الآن، وكان من أشهر تلك المناطق: مكّة ويثرب والطائف، ونريد أن نُدلّل على شيء وهو كيف انقلبت هذه الذلة وهذا الصغار إلى سيادة العالم بأسره، في بضع سنوات معدودات.

نفس هؤلاء الأفراد الذي أدركوا شطرًا كبيرًا من الجاهلية بعد فترة قصيرة من عمر الزمن صاروا أسيادًا للعالم، وصار الجندي الفارسي والرومي إذا سمع صيحة (الله أكبر) يكاد أن يسقط مغشيًا عليه، ذلك الجندي البطل الذي كان من قبل لا يُجارى، اسمع لتلك المقولة التي قالها يزدجرد آخر ملوك الفرس لرسول سعد بن وقاص –رضي الله عنهما– عندما ذهب له ليخاطبه، وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية، وهذه المقولة تُلخّص حالة العرب السياسية في تلك الفترة، وكيف أنهم كانوا في منتهى الذل والصغار، والشاهد منها أنه يصوّر لنا حالة العرب قبل مبعثه ﷺ وقبل دخولهم في الإسلام، يقول يزدجرد:

"إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذاتَ بَيْنٍ منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرَّنكم منا، وإن كان الجَهْد دعاكم فرضنا لكم قُوْتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملَّكنا عليكم ملكًا يرفق بكم. "اهـ.

فالفرس تعجبوا من هذه النقلة العجيبة، وكيف كان هؤلاء الحفاة العراة العالة منذ بضعة أيام يتسوّلون منهم ما يقتاتون به حياتهم، ثم انقلبوا في بضعة أيام إلى حكام وقادة وسادة يريدوا أن يخضعوا فارس والروم إلى سيادتهم، فهي مسألة لا يتحملها العقل.

قال بعض كتاب السير: كانت حالة العرب من السوء والانحطاط للدرجة التي جعلت فارس والروم لا يفكرون في احتلالها، منتهى الذل والصغار كان يعيشه العرب قبل دخولهم في الإسلام، وهذه المسألة نقف عندها؛ وهي أنّ العربيّ مهما كان أميرًا أو ملكًا أو سلطانًا إذا تخلّا عن إسلامه فهو ونعله سواء، لا تجد بينهم أي فرق يذكر، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة بغيره، أذلنا الله" ، كما نرى اليوم بصورة واضحة.

كذلك مما يصوّر لنا حالة العرب تلك المقولة التي سطّرها لنا وحفظها التاريخ؛ مقولة جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه– عندما أرسلت قريش في إِثر هؤلاء الذين فرّوا بدينهم إلى الحبشة، قال جعفر كما ذكر ابن هشام في سيرته مخاطبًا النجاشي: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف" اهـ [٨] [٤]

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر؛ فانظر وصف يزدجرد الملك الفارسي لحال العرب قبل الإسلام في زمن الجاهليّة، وانظر لردّ ربعيّ بن عامر –رضي الله عنه– على رستم في زمن الإسلام، وقارن بين الحالين، وانظر لتلك العزة وتلك القوة وذلك الاستعلاء الذي كان يتكلم به ربعيّ بن عامر، كلام اليوم كالخيال ولكنّه إن شاء الله سيتكرر.

---

[٤] (البداية والنهاية) لابن كثير، ط: هجر (٩\٦٢٦).

[٤] أخرج الحاكم في مستدركه (٢٠٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: "إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله" صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[٤] سيرة ابن هشام، ت: السقا (١\٣٣٦).

الحالة الاجتماعية الأخلاقيّة للعرب قبل الإسلام:

أمّا عن الحالة الاجتماعية والخُلُقيَّة للعرب في زمن الجاهليّة قبل الإسلام، فهي جملة مختصرة، كانوا في منتهى الانحطاط الخُلقي والاجتماعي الذي يمكن أن يصل إليه البشر، رغم أنّهم كانت لديهم بعض الصفات الحميدة التي مَيَّزتهم –رغم ما هم فيه من فاقة– عن الفرس والروم.

فشرب الخمر لم يكن من الأشياء المنتشرة فحسب بل كان من الأشياء التي يُفْتَخَر بها في المجالس، بل كان يعتبر من مقاييس ومعايير الرجولة عندهم، وكانوا لا يفارقونها لا صباحًا ولا مساءً، ولا في الغدو ولا في الرواح، ولا في إقامة ولا في سفر.

والزنا كان متفشيًا بينهم إلى درجة غير عادية، لا يسلم منه إلا القليل الذي وصلت به عزّة النفس إلى الترفّع عن هذه المسألة، رغم أنّ المجتمع لم يكن يرى أنها فاحشة أو أنّ فيها أي غضاضة، يشهد لهذا الأمر ذلك الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه من حديث عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنهم–. والشاهد من هذا الحديث أن نرى مدى الانحطاط الخُلُقي الذي تترفَّع عنه الفِطَر العادية فضلًا عن الإيمان، ورغم ذلك كانت موجودة في ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت منتشرة بينهم، بل لم يكونوا ينكرونها، بل لم يكونوا يرون فيها أي غضاضة وكانوا يمارسونها بصورة طبيعية. الشاهد أنّنا نريد أن نبين كيف استطاع الإسلام في أيام يسيرة أن يغيّر هذه النفوس؛ كان أحدهم يسلم اليوم وغدًا تراه شخصًا جديدًا تمامًا كأنه نزل من السماء، وهو الذي كان بالأمس يعيش في تلك الجاهليّة بل ينغمس فيها حتى أذنيه، وهذا مؤشر على حقيقة هذا الدين الذي ضيَّعناه، وإن كنا ننتسب إليه انتسابًا اسميًا، رغم أن المنهج هو نفس المنهج والقرآن هو نفس القرآن ولكن النفوس تختل والتصرفات تختلف والالتزام يختلف والمواقف تختلف.

تقول عائشة –رضي الله عنها–: "أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهُرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي

تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.." .[٩][٤]

وأي نفسية مهما بلغت من الانحراف والدناءة لا ترضى هذا الأمر، ورغم ذلك كان هذا الأمر منتشرًا في جاهلية قريش قبل الإسلام!، ونحن نبيّن عمق الجاهليّة حتى نُبيّن عظمة الإسلام في تحويل وفي صياغة هذه النفوس، وكيف انقلب أصحاب الجاهلية النتنة وأصحاب الأمور التي تنفر منها الفطر السليمة،؛ كيف انقلب هؤلاء -بين عشية وضحاها- إلى أسياد العالم، وكيف حصلت هذه المعجزة، كما قال أحدهم:

أتطلبـــــون مـــــن المختـــــار معجـــــزة يكفيـــه شـــعبٌ مـــن الأمـــوات أحيـــاهُ

بالفعل كانوا أمواتًا لا يميّزون بين حق وباطل، ولا يُميّزون بين صنم لا ينفع ولا يضر وبين ربّ العالمين، ولا يميّزون بين أمور تأنف منها الفطرة البشرية، وهذه الصفة وهذ النفس هي التي صارت في بضع سنوات سادة وقادة ورائدة للعالم بأسره، فهي بالفعل معجزة، بل هي -كما قال الشيخ السباعي- من أدلّ الأدلّة على صدق نبوته ﷺ؛ صياغته لتلك النفوس وإخراجه بأمره الله وتقديره لذلك الجيل الفريد الذي لا يأتي مثله، رغم ما كان فيه هذا الجيل من جاهليّة.

فكان الزوج يرسل زوجته لتستبضع من رجل آخر، وهو أمر تأنف منه الفطر العادية وتشمئز منه، فيعتزلها زوجها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل، ويفعل ذلك ويرسلها لرجل من سادة قريش حتى يكون الابن من النجباء والأذكياء والعظماء، وهذا الابن ليس ابنه!، فهو يتخذ شيئًا ليس له، فضلًا عن ما في ذلك من الدياثة والذلة والمهانة والعياذ بالله. وكل أصحاب فعل لديهم تأويل!

تقول عائشة -رضي الله عنها-: "ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا

---

[٤] صحيح البخاري (٥١٢٧).

تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتحق به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك".

والقافة هو النَّظر في الشَّبه فيُنظر أشبه الرجال بالولد، وهو كان فنًا معروفًا عند العرب، وهذه الأمور كلها كانت تدور في الجاهلية بدون نكير، وكانت تُمارَس على الملأ بصور طبيعيّة، فانظر إلى قمة الجاهلية، جاهلية ما بعدها جاهلية، أمور تأنف منها الفطر السويّة فضلًا عن الإيمان، هذه النفوس وهذه الجاهليّة هي التي بعد أن دخلت الإسلام صارت كالشمس في رابعة النهار طُهرًا ونقاءً وصدقًا وإخلاصًا وعزةً وتمسكًا بهذا الدين، فبالفعل هي معجزة، وهي في المقام الآخر حُجّة علينا.

وكذلك كانت من تلك الأمور المنتشرة في الجاهلية أنهم كانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجات آبائهم إذا طُلّقت أو مات الأب، ولذلك عندما جاء الإسلام نهى عن هذه الأمور؛ قال تعالى: {وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ}[°] ، وقال تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ}[°] . وكذلك كانوا يعدّدون في الزواج تعدّادًا مطلقًا؛ فلم يكن هناك يقف عنده العبد، وكذلك لم يكن للطلاق عندهم عدد معين، فله أن يطلق كما يريد، فجاء الإسلام وحصرها في اثنين.

وكذلك من المخازي التي كانت تنتشر بين الجاهلية وأد البنات، فكانوا يأخذون البنت وهي حيّة فيحفر لها حفرة أو قبرًا فيضع بنته وهي حيّة ثمّ يضع فوقها التراب، يَذكر ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}[°] أثرًا عن قيس بن عاصم -رضي الله عنه- أحد الصحابة الكرام؛ أنه في الجاهليّة وأد له ١٢ بنتًا، فانظر كيف يصنع الإسلام المعجزات البشرية.

[°] سورة النساء، الآية: ٢٣.

[°] سورة النساء، الآية: ٢٢.

[°] سورة التكوير، الآيات: ٨-٩.

كذلك كانوا يقتلون أولادهم من البنين والبنات خشية الفقر كما قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} ، كذلك كان ينتشر في الجاهلية الربا، بل كانوا يرون أنّ الربا هو عين البيع، كما قال تعالى مُنْكِرًا عليهم: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} .

كذلك كانوا يُطَفِّفُون في المكيال، كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} ، فإذا كال لك ليبيع لك يعطيك المكيال ناقصًا، أمّا إذا كان يأخذ منك فيأخذ بالزيادة. أمّا القمار والميسر فكان من شعائر وعلامات المجتمع، بل كان الرجل في الجاهلية يصل في هذا الأمر لدرجة بعيدة، كما ذكر ذلك الطبري في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} ، فذكر الطبري أنّ الرّجل في الجاهلية كان يقامر على أهله وماله وولده!، فإذا خسر كان يرى أهله وماله وولده في أيدي خصمه، مما كان سببًا في إشعال نار الحقد والعداوة والبغضاء بينهم.

الحالة الدينيّة للعرب في الجاهليّة قبل الإسلام:

هذا كان عن الحالة الاجتماعية والأخلاقية، أما عن الحالة الدينية فنقول: روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– في تفسير قوله تعالى: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} ، يقول ابن عباس: "صارت الأوثان التي كانتْ في قوم نوح في العرب بعد؛ أما وُدّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبأ، وأما يعوق

° سورة الإسراء، الآية: ٣١.

° سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

° سورة المطففين، الآيات: ١–٣.

° سورة المائدة، الآيات: ٩٠–٩١.

° سورة نوح، الآية: ٢٣.

فكانت لهمذان، وأما نسر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت" .[٨] [٥]

وقيل أن الريح نقلت الأصنام التي كان في قوم نوح بعد الطوفان إلى شواطئ جدّة، وتجمعت عليها الرمال ثم جاء عمرو بن لُحيّ أو العماليق فأخرجوها وصاروا يعبدونها من دون الله.

وفي انتقال عبادة الأصنام للجزيرة العربية قصة ذكرها ابن كثير في (البداية والنهاية)؛ كان الذي يشرف على مكة ويتزعم النظام القبلي فيها هي قبيلة خزاعة، وكان على رأس خزاعة عمرو بن لحي الخزاعي سيد قومه في ذلك الوقت، وهو أوّل من أدخل الأصنام والأوثان إلى الجزيرة العربية، وخزاعة التي كانت سببًا في دخول الأصنام للجزيرة العربية قبل الإسلام كانت سببًا في فتح مكّة بعد الإسلام، فبالفعل يُخرج الحي من الميت!.

نقول كان رئيسهم عمرو بن لحي الخزاعي سيدًا مُطاعًا، فلا يأمر العرب بأمر إلّا أطاعوه واتبعوه؛ لأنّ مكة كانت تمثل عند العرب مركز السيادة الدينية، فكان أهلها أصحاب القيادة والتوجيه لما للبيت من قداسة عند العرب، قيل أنه خرج من مكة إلى الشام لبعض الأمور وبعض رحلاته، فعندما رجع مرّ بمَآبَ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ وَبِهَا يَوْمَئِذٍ الْعَمَالِيقُ؛ فوجدهم يعبدون الأصنام فاستحسن ذلك وظنّه حقًا، فهم بالفعل في منتهى الضلال ويظنون أنهم يُحسنون صنعًا، فرَآهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَقَالَ لَهُمْ: "أَلَا تُعْطُونِي مِنْهَا صَنَمًا فَأَسِيرُ بِهِ إلى أرض العرب فيعبدونه؟"، فأعطوه صنمًا يقال له هُبَل الذي أصبح الإله الأعلى عند قريش، فقدم به مكّة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل أنه كان لهذا الرجل رأيًا من الجن، أي كان له جن يتمثل له فيراه ويوحي له من زخرف القول غرورًا، فأتاه فقال له: "عجل السير والظعن من تهامة، بالسعد والسلامة، ائت جدة، تجد فيها أصنامًا مُعدَّة، فأوردها تهامة ولا تهب، ثم ادعُ العرب إلى عبادتها تُجَبْ" .[٩] [٥]

---

٥ صحيح البخاري (٤٩٢٠).

٥ انظر: كتاب الأصنام للكلبي – ص٥٨.

كذلك كان هناك سبب آخر لعبادة العرب للأصنام ذكره كذلك ابن كثير في (البداية والنهاية)؛ وهو أنّ بني إسماعيل الذين كانوا يسكنون مكة قبل خزاعة عندما ازدحمت مكة بهم وعندما ازدحم بهم المكان؛ بدأوا يهاجرون من مكة، وبدأوا يسيرون إلى مناطق متفرقة في الجزيرة العربية، فعندما كانوا يخرجون لمكّة، فمن حبّهم وتقديسهم لبيت الله الحرام كانوا يأخذون معهم الأحجار من مكة، فكل قوم يرحلون من مكة يأخذون معهم أحجارًا من البيت الحرام، فعندما يقيمون في مكان ما ينصبون هذه الأحجار ويطوفون حولها وكأنهم يطوفون حول البيت الله الحرام، ثمّ خطوة فخطوة بدأوا يعبدونها من دون الله ربّ العالمين.

ومن أشهر أصنام العرب في تلك الفترة (مناة) وكانت تقع بين مكة والمدينة في منطقة تعرف بالقديد، وكان أكثر من يعظّمها هم الأوس والخزرج، فكان يذبحون عندها ويتقرّبون إليها، بل كانوا لا ينتهون من مناسك الحجّ حتى يذهبوا إليها ويحلقون رؤوسهم عندها.

وكذلك (اللات) وكانت في منطقة الطائف، وكان سدنة اللات هم ثقيف، واللات هذه لها قصّة، كان هناك رجل يلتّ الثريد للحجيج، فلمّا مات هذا الرجل ادّعى عمرو بن لحيّ أنّ هذا الرجل لم يمت وإنّما دخل في هذه الصخرة، وهي كانت صخرة مربعة يجلس عليها اللات ويلتّ الثريد، فصاروا يعبدون هذه الصخرة دون الله ويتقرّبون إليها بالذبح والنذر إلى آخر صور العبادة.

كذلك من هذه الأصنام (العزّى)؛ والعزى كانت عبارة عن ثلاث شجرات من شرج الطلح، وكان يسمعون منها صوتًا، وبالفعل كما قال أهل السِّيَر كان هناك صوت يخرج من هذا المعبود، وهذه العزّى هي التي قطعها خالد بن الوليد –رضي الله عنه– بعد الفتح، حيث أمره النبي –عليه الصلاة والسلام– بعد فتح مكّة أن يذهب إليه ويقطعها، فذهب وعضد الشجرة الأولى، ورجع إلى النبي –عليه الصلاة والسلام– فسأله النبي: (هل رأيت شيئًا؟)، قال: "لا"، فقال له: (ارجع إلى الثانية) فقطعها، فجاء فقال له: (هل رأيت شيءً؟)، قال: "لا"، قال: (فارجع إلى الثالثة)، فذهب خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها حبشيّة منكوشة الشعر تصرخ وتولول، فقطع رأسها وقتلها، فاستحالت رمادًا –كما روى ابن هشام عن ابن إسحاق–، فهي كانت من الجن الذين يسكنون تلك الأماكن.

كذلك كان من أشهر الأصنام (هبل)، وكان هو الإله الأعلى عند قريش، وكان في صورة إنسان، وكان مصنوعًا من العقيق ومن الذهب، وكان ينحرون عنده ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات.

وكذلك كان هناك صنما (إِسَاف وَنَائِلَة)؛ وهناك حديث ذكره ابن إسحاق عن أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- والحديث إسناده حسن، تقول عائشة أمّ المؤمنين -رضي الله عنها-: "ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جُرْهُم، أحدثا في الكعبة، فمسخهما الله تعالى حجرين"[٦].

كذلك كان كل قوم يتخذون في بيتهم صنمًا لهم، يعبدونه ويتقربون إليه من دون الله رب العالمين، وفي صحيح البخاري عن أبي رجاء العطاردي، قال: "كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به."[٦].

كانوا يصنعون الآلهة ويعبدونها ثمّ يأكلونها. نحن نريد أن نركّز ونعرف كيف استطاع الإسلام أن يصنع من هؤلاء الذي كانوا في قمّة الجاهليّة، أن يصنع منهم أوتادًا شوامخ يقودون العالم، فهذه معجزة بالفعل.

وقد روى ابن كثير عدّة أحاديث في كتابه (البداية والنهاية) في ٢\٢٠٦؛ تدل على ما ابتدعه عمرو بن لحي الخزاعي من دين باطل داخل مكّة وعبّد إليه الناس، سواء داخل مكّة أو حتى في أنحاء مختلفة من جزيرة العرب.

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- كما ذكر في صحيح البخاري: "إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام"[٦]، يشير إلى قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)}[٦]، وتلك الآيات نحن فصّلنا الحديث عنها عند حديثنا عن موضوع الحاكميّة، عندما ضربنا أمثلة للتشريعات التي لم يأذن بها الله.

---

[٦] انظر: سيرة ابن هشام، ت: السقا (١\٨٢).

[٦] صحيح البخاري (٤٣٧٦).

[٦] صحيح البخاري: (باب جهل العرب).

[٦] سورة الأنعام، الآيات: ١٣٦-١٣٧.

وفي الصحيحين أنّ النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قصبه في النار، كان أول من سيَّب السَّوائب)[٤] [٦] .

وكذلك عند أبي إسحاق في سيرته بإسناد صحيح ١٢١\١ أن النبي ﷺ قال عن عمرو بن لحي الخزاعي: (إنه كان أول من غيّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحّر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي) ، وهذه المصطلحات شرحناها نحن من قبل في (دروة الحاكمية).

كانت التلبية منذ عهد إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– حتى دخول الأصنام إلى مكة والجزيرة العربية؛ كانت صيغتها: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك)، يقول ابن هشام كما نقل عنه محمد بن عبد الوهاب في (مختصر السيرة النبوية) صـ ٤١: "بينما كان عمرو بن لحي الخزاعي يطوف بالكعبة يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال: (لبيك لا شريك لك)، فقال الشيخ: (إلا شريكًا هو لك)، فأنكر هذا عمرو، فقال: (ما هذا؟) فقال الشيخ: (قل تملكه وما ملك، فإنه لا بأس بهذا)، فقالها عمرو، فدانت بها العرب".[٦]

يعني قال: هو شريك لك ولكن أنت تملكه، فيُثبت الشيء ونقيضه؛ فيُثبت شريكًا لله –عزّ وجلّ– ثم حتى يجد لنفسه مخرجًا يقول: هذا الشريك وكل ما يملك هو ملك لله –عزّ وجل–!، خلل في الإيمان بالله تعالى، والصورة اليوم تكرّرت بنفس الطريقة ولكن الشريك يختلف، فكانوا يتخذون شركاء من الأصنام والأوثان والكواكب والنجوم، واليوم يتخذون شركاء من جنس آخر وبنفس التأويل.

وهذا الأثر أخرجه البزار في مسنده بإسناد حسن عن أنس –رضي الله عنه–، ولفظه: "كان الناس بعد إسماعيل على الإسلام، فكان الشيطان يحدث الناس بالشيء، يريد أن يردهم عن الإسلام، حتى أدخل عليهم في التلبية [لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك] حتى أخرجهم عن الإسلام إلى الشرك".

---

[٦] صحيح البخاري (٤٦٢٣) صحيح مسلم (٢٨٥٦).

[٦] انظر: سيرة ابن هشام، ت: السقا (٧٦\١).

[٦] لم نجد القصة في المصدرين المشار إليهما وقد ذكرها السهيلي في (الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام) ٢١٢\١.

[٦] مسند البزار (٧١٨٨).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣\٢٢٣) عن هذا الحديث: "رجاله رجال الصحيح"، فهذا الحديث حسن بالفعل.

وهناك أثر عن النبي ﷺ أنه كان عندما يسمع قريش تلبي وتقول: "لبيك لا شريك لك" يقول لهم: (ويلكم، قد قد) أي يكفي يكفي، فكانوا يُكملون تلك التلبية الشركية فيقولون: "إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك"![٦]

كذلك كان من تلك الشعائر التي ابتدعها كفار قريش في الجاهلية أمر الحَمْس، وهذا الأمر أدّى بهم في النهاية أن فرضوا على الرجال من خارج مكة أن يطوفوا بالبيت عراة، وفرضوا على النساء كذلك أن يَطُفن عراة، حتى قالت إحداهنّ:

الْيَـــــــوْمَ يَبْـــــــدُو بَعْضُـــــــهُ أَوْ كُلُّـــــــهُ فَمَـــــا بَـــــدَا مِنْـــــهُ فَـــــلَا أُحِلُّـــــهُ

حتى تعلموا مدى الجاهلية التي وصل إليها القوم.

ومن تلك النوازل والطُّرَف التي تُبيّن لك هذه النفوس قبل الإسلام؛ ما ذكره الإمام أحمد في مسنده من حديث السائب بن عبد الله، والحديث صحّحه الحاكم في مستدركه ووافقه عليه الذهبي، يقول السائب –رضي الله عنه–: "ولي حجر أنا نحته بيدي أعبده من دون الله –تبارك وتعالى–، فأجيء باللبن الخاثر الذي أنفسه على نفسي، فأصبه عليه، فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يشغر فيبول"[٦] وهو رأى ذلك بنفسه ومع ذلك يعبده!

حتى قال أحدهم لما رأى ثعلبين أتيا فطافا حول الإله المزعوم ثم بالا عليه:

ربٌّ يبـــــــول الثَّعلبـــــــان برأســـــــه لقـــــد ذَلَّ مـــــن بَالَـــــتْ عليـــــه الثعالـــــبُ!

---

[٦] صحيح مسلم (١١٨٥).

[٦] مسند الإمام أحمد (١٥٥٠٤).

وهناك قصة طريفة جدًا ذكرها أهل السير؛ كان لبني حنيفة إله عظيم تعبوا في صنعه، صنعوه من التمر، وكانوا يعبدونه فترة طويلة من الزمن حتى نزلت بهم مجاعة وحلّ عليهم الفقر، وكان هذا كثيرًا ما يحدث في بلاد العرب، فكانت النتيجة أن أكلوه، اجتمعت القبيلة حول الإله المزعوم وأكلوه، فعيَّرهم أحد الأذكياء ببيتين من الشعر:

أكلـــــــــت حنيفـــــــــة ربهـــــــا   زمـــــــــن الـــــــــتقحم والمجـــــاعة
لم يحـــــــــذروا مـــــــــن ربهـــــــا   ســـــــوء العواقـــــــب والتباعـــــــة

للفاروق عمر -رضي الله عنها- قصة معروفة في الجاهلية، الفاروق نفسه يروي أنه كان له في الجاهلية إله من عجوة، فأصابه الجوع في أحد أسفاره فأكل الإله المزعوم، هو نفسه الفاروق الذي قيل فيه فيما بعد:

قـــــالوا فمـــــن ثاني أبي بكـــــر الرضـــــا   قلـــــت الإمـــــارة في الإمـــــام الأَزْهَـــــدِ
فـــــاروق أحمـــــد والمهـــــذب بعـــــده   ســـــند الشـــــريعة باللـــــسان وباليـــــدِ

هذه حالة الجاهلية قبل مبعثه ﷺ، وما كان يرضخ فيه الناس من ذلٍ وصغار، ومن فُحشٍ وعار، ومن عبادة تأنف منها العقول السليمة للحجارة والأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

كذلك كانت هناك ديانات أخرى منتشرة بالإضافة إلى عبادة الأصنام والأوثان، فكانت هناك عبادة الكواكب والنجوم، وكذلك كانت هناك المجوسيّة، وهناك النصرانيّة، وكانت هناك اليهوديّة، ولكنّها كانت في مناطق قليلة جدًا من أنحاء الجزيرة العربية، فعلى سبيل المثال ما ذكره ابن قتيبة في كتابه (المعارك) صـ ٦٢١: "أنّ المجوسية كانت موجودة في تميم، وكان منهم الأقرع بن حابس التميمي، كذلك كانت موجودة في البحرين".

أمّا اليهوديّة فكانت موجودة في المدينة وفي خيبر وفي وادي القرى وفي فدك في تيماء واليمن. أمّا النصرانيّة فكانت موجودة في الغساسنة والمناذرة، وكانت موجودة في بعض الأحياء من قريش، فتنصّر بعض بني الأسد بن عبد العزّى، ومن أشهر العرب الذي تنصّروا ودخلوا في الديانة النصرانيّة ورقة بن نوفل -رضي الله عنه-، وكذلك من بني تميم تنصّر قوم امرئ القيس، ومن ربيعة تغلب وبعض قبائل قضاعة.

ولكن هذه الصورة –سواء المجوسية أو اليهودية أو النصرانية– لا تمثل إلا الشواذ، بينما الديانة الرئيسية التي كانت عليها العرب في تلك الفترة هي عبادة الأصنام والأوثان، وما كان هذه الديانات الأخرى إلا نذر يسير لدى بعض الأقوام.

وفي هذه الظلمة الظلماء كان هناك نفر يسير ممّن تمسّكوا بدين إبراهيم الحنيفيّة الأولى، وكانوا يُعرفون عند قومهم بالحُنفاء، وممن أشهر هؤلاء الحنفاء زيد بن عمرو بن نفيل، وهو ابن عمّ عمر بن الخطاب، ووالد أحد العشرة المبشرين بالجنة سعيد بن زيد –رضي الله عنهم جميعًا–، وأخبر النبي ﷺ أن زيدًا يُبعث يوم القيامة أمة وحده. وكذلك كان منهم قسّ بن ساعدة الإياديِّ وهو الخطيب والداعية للحنفيّة المشهور في زمن الجاهلية، وكذلك كان منهم ورقة بن نوفل. المهم أن هؤلاء كانوا نذرًا يسيرًا لا يكاد يوجد لهم أثر في ضمن هذا التيه وهذا الركام الهائل في الجاهلية.

وبهذه العجالة نكون قد أخذنا صورة سريعة عن حالة العرب قبل مبعثه ﷺ، والهدف من هذا الاستعراض أنّنا رأينا كيف كان القوم يرضخون في جاهلية جهلاء، وكيف انتقلوا في زمن يسير إلى قمّة المجد وإلى صناعة التاريخ.

سبحانه الله بحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

الدرس السادس

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، نكمل -إن شاء الله- ما كنا توقفنا فيه من دروس السيرة النبوية على صاحبها أزكى وأطيب الصلاة والسلام.

تكلمنا في الدروس السابقة عن مقدمات للسيرة النبوية، ثم تكلمنا بعد تلك المقدمات عن أحوال العالم بصورة عامة قبل مبعثه ﷺ، ورأينا كيف أن العالم كان يغوص في ظلمة ظلماء وجاهلية جهلاء، ثم تكلمنا بشيء من الخصوصية عن حالة العرب قبل مبعثه ﷺ وخرجنا بنفس النتيجة؛ أنهم كذلك كانوا جزءًا من هذه الظلمة التي عمّت وطمّت العالم بأسره، وصدق فيهم قوله -عليه الصلاة والسلام-: (وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمَقَتَهُم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب)[٧] .

ثم تكلمنا عن تلك المعجزة التي حدثت على أيدي هؤلاء النفر من أصحابه ﷺ، ألا وهي تغيير وجه الكرة الأرضية في زمن يسير، ربما لا يصل إلى عمر إنسان واحد، ثم عقدنا مقارنة بين أحوال العالم قبل مبعثه ﷺ وبين أحوال عالمنا المعاصر، وكما كانت هناك مبشرات بزوال تلك الأمم والإمبراطوريات العظمى التي عاصرت النبوة؛ رأينا كذلك أن هناك مبشرات في زمننا، في زمن الانكسار، واستعرضنا تلك المبشرات على وجه الإيجاز، وخرجنا إلى أنّ الأمر آيلٌ بلا محالة إلى عباد الله، فالعاقبة للمتقين، ورأينا أن تلك المبشرات منها ما يخرج من رحم أعدائنا من معسكر الكفر نفسه على شتى أنواع وأصناف هذا الكفر، ومبشرات أخرى تخرج من معسكرنا نحن، من معسكر تلك الفئة المؤمنة التي آوت إلى ركن ركين؛ إلى ركن ربّها، وتمسّكت بسنة نبيه ﷺ.

---

[٧] صحيح مسلم (٢٨٦٥).

من الميلاد إلى البعث:

نكمل إن شاء الله ما بدأناه فنتكلم اليوم عن ميلاده ﷺ، فنقول أولًا: وُلد رسولنا ﷺ في أسرة زاكية المعدن نبيلة النسب، فهو -عليه السلام- ينتمي إلى أسرة عربية شهيرة مرموقة معروفة، يشهد بفضلها الأعداء قبل الأصدقاء، وأنتم تعرفون أن العرب كانوا ذوي علم بالأنساب، بل يفتخرون أوّل ما يفتخرون بأنسابهم، جمعت هذه الأسرة خلاصة ما في العرب من فضائل، وفي نفس الوقت تنزّهت عن أوزار الجاهلية وعن تلك السمة التي لم يكن ينجو منها إلا نفر يسير؛ وهي التنجُّس بأخلاق الجاهلية، والتي كانت في مقامات كثيرة مجال للفخر والاعتزاز رغم ما فيها من خلف بهيمي.

فنقول هذه الأسرة كانت تتميز بترفُّعها عن تلك الأخلاق الجاهلية، وكان هذا أمرًا معروفًا مشهورًا عنها يشهد به أعداؤها قبل أصدقائها، فلا عجب أن ينتسب النبي ﷺ وهو المصطفى المنتقى إلى تلك الأسرة الكريمة في الجاهليّة، قال النبي ﷺ فيما أخرجه الإمام مسلم عن واثلة بن الأسقع، ورواه الترمذي وصححه: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[١].

فهو -عليه الصلاة والسلام- مصطفى حقًا وصدقًا، بل هو خلاصة الصفوة، وخلاصة ذلك العرق الطيب، صفوة من صفوة ومن صفوة ﷺ.

وفي فضل قريش كذلك ما ورد عن أمّ هانئ مرفوعًا وأخرجه الحاكم في مستدركه وصحّحه وحسّنه العراقي والألباني في (السلسلة الصحيحة)؛ قال -عليه الصلاة والسلام-: (فضل الله قريشا بسبع خلال؛ أني فيهم وأن النبوة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن). ثم تلاها رسول الله ﷺ، بسم الله الرحمن الرحيم {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ})[٢].

---

[٧] صحيح مسلم (٢٢٧٦)، سنن الترمذي (٣٦٠٦).

[٧] مستدرك الحاكم (٣٩٧٥).

وفي حديث الذي رويناه سابقًا حول لقاء هرقل مع أبي سفيان قبل إسلامه ؛ أنّ هرقل سأل أبو سفيان[٧] عن النبي ﷺ: "كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟"، وهرقل سأل هذا السؤال لأنّه من علامات النبوّة المذكورة في التوراة والإنجيل، والتي يعلمها علماء أهل الكتاب، ولم يكن أبو سفيان يَسَعُه أن يكذب كما أشار هو بنفسه في صدر الحديث، فقال أبو سفيان: "هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ"؛ فأعداؤه حتّى وهم يحاربونه يعترفون له ﷺ بشرف النسب وبطيب العنصر، ثم في آخر الحديث بعد أن انتهت الأسئلة والأجوبة قال هرقل:"(سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها"، وهرقل كان من أعلم أهل زمانه بالكتاب، فهذه العلامة على التحقيق هي من علامات النبوة. قال ابن خلدون في حديثه عن علامات النبوة في مقدمته: "ومن علاماتهم أيضًا أن يكونوا ذوي حسب في قومهم" اهـ.

وللنبي ﷺ من هذه العلامة الغاية العظمة، كما هو شأنه في كل شأنه ﷺ، أخرج الترمذي في (كتاب المناقب) بإسنادٍ رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد أنه ﷺ قام على المنبر فقال: (من أنا؟) قالوا: "أنت رسول الله عليك السلام". قال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا وخيرهم نفسًا). قال الترمذي حسن صحيح، وكذلك قال الهيثمي[٧] في مجمع الزوائد.

قال ابن حزم –رحمه الله–: "نسبه ﷺ، هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان." اهـ.

وهذا القَدْر من نسبه ﷺ هو محل اتفاق بين أهل العلم، وأخرج هذا القدر الإمام البخاري في صحيحه في (كتاب المبعث)، أما ما بعد عدنان فمحل خلاف بين أهل العلم، وليس فيه على التحقيق شيء يُعتمد عليه، أي ليس فيه ما يستطيع العالم أن يجزم بصحته، حتى عدنان هذا محل اتفاق بين أهل العلم، أما ما فوق عدنان إلى آدم –عليه

---

[٧] انظر: صحيح البخاري (٧).

[٧] تاريخ ابن خلدون (١\١١٧).

[٧] سنن الترمذي (٣٦٠٨).

السلام–، فهذه السلسلة هي محل اختلاف بين أهل العلم، وعلى التحقيق ليس فيها ما يستطيع أن يتكئ عليه العالم فيجزم بقولٍ ما.

إلا أنه كما جزمنا بصفة القِسْم الأول من نسبه –عليه الصلاة والسلام– فإنّا نجزم بأن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم –عليهما الصلاة والسلام–، وهذا محل اتفاق بين أهل العلم، قال ابن كثير في (قصص الأنبياء): "وذلك أنه [أي لإبراهيم] وُلد له لصلبه ولدان ذَكَران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، ووُلد له يعقوب – وهو إسرائيل– الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جدًا بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصّهم بالرسالة والنبوة، حتى خُتموا بعيسى بن مريم من بني إسرائيل. وأما إسماعيل –عليه السلام–، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى. ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه. فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة." اهـ.[٦] [٧]

وهاجر أمّ إسماعيل مصريّة، وهذا شرف لأهل مصر، ولهذا قال ﷺ: (ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا) ، وجميع الأنبياء باستثنائه[٧] ﷺ كانوا من نسل[٧] إسحاق، الوحيد الذي كان من نسل إسماعيل هو نبينا محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين سيد ولد آدم ولا فخر.

وفي هذا من الإشارات ما لو أردنا أن نتوقف عندها لأخذ منا زمنًا طويلًا، ولهذا كان اليهود ينتظرون مبعثه ﷺ منهم، فلمّا خرج من العرب حسدوهم، بل أكل الحسد قلوبهم، كيف تُصرف النبوة عنهم في خاتمها!، وكان الحسد أثّر في تلك القلوب النَّتِنة. وفي هذا التحويل من عند الله تعالى من الحكم الشيء الكثير، وهو في حدّ ذاته من علامات ودلالات نبوته ﷺ.

---

[٧] قصص الأنبياء لابن كثير (١\٢٣٣).

[٧] صحيح مسلم (٢٠٤٣).

نقول كان هذا المنبت للنبي ﷺ في تلك الأسرة التي لها شأنها عند العرب بعضًا مما أعدّ الله تعالى للنبي ﷺ ويَسَّرَ له من أسباب النجاح، ولك أن تتخيل الدور الذي تلعبه القومية أو بمصطلح عصرهم القبليّة والأُسريّة في مجتمع لحمته تلك القبليّة والنزعة العشائريّة، فكان لها بالفعل دور رئيسيّ في المجتمع في كل صغيرة وكبيرة، بل كانت الحروب الطاحنة تقوم لا لشيء إلا أن تتعرّض كرامة القبيلة لبعض الإهانة، هذا الأمر كان لا يقبل النزاع والنقاش عند العربيّ، فكان للنزعة القبائلية والعشائرية دورٌ كبيرٌ في حماية كل من ينتسب لتلك العشيرة والقبيلة، وهذا أمر سوف نراه بصورة واضحة في سيرته ﷺ في الفترة المكية قبل أن يُمكِّنَ اللهُ لهذا الدين وقبل أن تَشْتَدَّ شوكته وشوكة أتباعه.

فعلى سبيل التوضيح ذلك الدور الذي لعبه –بمشيئة الله وبإذنه– عمّ النبي ﷺ أبو طالب، كان هذا الدور يعتمد في الأساس على تلك النزعة القلبية والعشائرية والتي لم تكن ترضى أبدًا أن يُسَلَّم النبي ﷺ لأعدائه، ومن ثمّ انطلق النبي ﷺ بتلك الحماية التي سخّرها الله له بسبب تلك الروح –روح القبيلة والعشيرة– انطلق داعيًا إلى ربه رغم أنف الكافرين.

وأخرى من حكمة كون المصطفى ﷺ ينتسب لأسرة كريمة النسب والعرق؛ أنّ هذا من باب سدّ الألسنة والأقاويل، حتى لا تنطلق تلك الألسنة الكافرة بالله وتلك القلوب التي ملأها الحقد عليه وعلى دعوته ﷺ فتطعن في نسبه وتطعن في أصله، فهم لم يكونوا يستطيعون أن يَلِجوا هذا الباب لأنّهم هم بأنفسهم قبل غيرهم يُثبتون له طيب النسب وأصالة العنصر، كما مرّ معنا في قول أبي سفيان لهرقل، وكان أبو سفيان في وقتها زعيم قريش الذي يحمل لواء حرب الرسول ﷺ، ومع ذلك لم يستطع أن يكتم هذه الحقيقة فقال: "هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ".

فالله –سبحانه وتعالى– من حكمته أن جعل أنبياءه ذوي نسب في قومهم حتى يقطع تلك الألسنة إذا أرادت أن تتعرض لعرضهم بالسلب النقص، وهذا الأمر إذا حدث فسيكون مدعاة لذوي القلوب الضعيفة، فيقولون لهم: "نبيكم ورسولكم فيه كذا وكذا وينتسب إلى أسرة من شأناها كذا وكذا"؛ فهذا الأمر قطعه الله على الكافرين، فلم يجدوا له سبيلًا.

أمر آخر من الحكم في كون الأنبياء ذوي أنساب في قومهم؛ حتى لا يتقوَّل مُتَقَوِّل وحتى لا يدَّعي مُدَعٍ وحتى لا يزعم زاعم أن تلك الدعوات التي جاء بها الأنبياء هي من أجل الظهور ومن أجل المكان الاجتماعية، فمن شأن الإنسان صاحب النسب الضعيف الذي لا يُؤبَه له عند قومه أن يتطلَّع إلى الشرف والمنصب فيدَّعي دعوات، فالنبي

-عليه الصلاة والسلام- لم يكن بحاجة إلى تلك الأمور، فكان قومه يشهدون له -كما قال أبو سفيان- أنه فيهم ذو نسب عريق.

كذلك من تلك الفوائد المستنبطة من كونه -عليه الصلاة والسلام- خيارًا من خيار وصفوة من صفوة من صفوة؛ فضل العرب، ونحن قلنا أن النبوة والرسالة كانت كلّها في بني إسرائيل إلّا رسالة النبي الخاتم، فحوّلها الله تعالى بمشيئته وبإرادته وبحكمته إلى العرب، الشق الثاني من أولاد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ففي هذا إشارة واضحة إلى فضل الجنس العربي.

فكما كانت النبوة قبله -عليه الصلاة السلام- في بني إسرائيل دليلًا على فضل بني إسرائيل كما قال تعالى:
٨ {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} ، كذلك فضّل الله تعالى العرب على العالمين، وهذ صورة من صور الاستبدال، فيوم أن يستبدل الناس دينهم كذلك هم أنفسهم يُستبدلون، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} ، فمجموع الأمة الإسْلامية عُصموا أن يكونوا مثل بني إسرائيل، يحدث هذا في الأفراد والأعيان كما قال النبي ﷺ: (لَتَتَبِعُنَّ سَنَن من كان قبلكم، شبرًا شبرًا وذراعًا بذراع) أمّا مجموع الأمة فقد غصمها الله تعالى أن تسلك مسلك بني إسرائيل.

فنقول أن هذه صورة من صور الاستبدال في الأمم، وكذلك هي سنة من سنن الله الجارية والمطبَّقة على الجماعات والأحزاب، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) بعد أن تكلم في عدة صفحات عن فضل العرب، وبعد أن ذكر جملة من الأحاديث الواردة في هذا الباب، قال رحمه الله:

"فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عرانييهم وسريانيهم روميهم وفرسيهم وغيرهم، وأن قريشًا أفضل العرب، وأن بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم. فهو: أفضل الخلق نَفْسًا، وأفضلهم نسبًا. وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم، لمجرد كون النبي ﷺ

---

[٧] سورة الجاثية، الآية: ١٦.

[٧] سورة محمد، الآية: ٣٨.

[٨] صحيح البخاري (٢٣٧٠).

منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ﷺ: أنه أفضل نفسًا ونسبًا، وإلا لزم الدور." أهـ[٨١]

والقضية ليست قضية قوميّة حاشا لله، فالقومية خُلُقٌ جاهلية نتن قد يورد بصاحبه الكفر والوقوع في الشرك والرد، بل القضية قضية اصطفاء، فالله –سبحانه وتعالى– له الحكم ولا مُعقِّب لحكمه، يُفضّل أقوامًا على آخرين، بل يُفضّل بعض النبيين على بعض النبيين، بل يفضّل بعض الأزمنة على بعض الأزمنة، بل يفضّل بعض الأمكنة على بعض الأمكنة، ولا يُسأل عن ما يفعل وهم يُسألون.

ثم قال ابن تيمية: "وهذا دليل على أن بُغض جنس العرب، ومعاداتهم: كفر أو سبب للكفر، ومقتضاه: أنهم أفضل من غيرهم، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان." اهـ[٨٢]

ونحن نتكلم عن جنس العرب وليس عن أفراد وآحاد العرب، فمن أفراد وآحاد العرب –كما هو مشاهد ومحسوس– مَنْ كراهيته وبغضه من الإيمان، بل من صلب الإيمان والتوحيد. بل لا يتحقق الإيمان إلا بكراهية هؤلاء الأفراد.

الأحداث العظام والآيات العظام التي سبقت ميلاد المصطفى ﷺ:

الله –عزّ وجلّ– كان يُهيّئُ العالم لاستقبال ذلك المولود، الذي غيَّر اللهُ به وجه الأرض تمامًا، فكان ميلاده ﷺ أعظم حدث في التاريخ حقًّا وصدقًا، كيف لا وهو المنقذ الذي أنقذ البشرية، كيف لا وهو الرحمة المهداة، كيف لا وهو الواسطة بين الحقّ والخلق؛ الذين ليس لهم للحق –سبحانه وتعالى– من طرق ومن واسطة إلا به ﷺ.

[٨١] كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية (١\٤١٩).

[٨٢] المرجع السابق (١\٤٣٥).

نقول لا شك أن الأمور العظيمة والآثار الكبيرة –دائمًا أو في الأغلب الأعمّ– يسبقها من الإشارات الدلالات والآيات ما يمهّد له، ما من حدث عظيم إلّا يسبقه أمور تمهّد لهذا الحدث وتُهيّئ الناس له، وهذا أمر تقديريّ، وتكون تلك الأحداث والإشارات إيذانًا بقرب ميلاد تلك الأمور العظيمة، ولم يسبق البشرية أمر أعظم من ميلاده ﷺ، فكان لا بد أن يهيَّأ العالم ببعض الحوادث التي تلفت أنظار الناس وتوقظ النائمين والغافلين منهم إلى أنّ هناك حدثًا يوشك أن يقع، فكيف بالله عليك إذا كان هذا الحدث هو ميلاده ﷺ الذي كان العالم كلّه يترقّب هذا الميلاد في الشرق والغرب؟

خاصة –كما استعرضنا من قبل– أنّ الأرض كان تغوص حتى آذانها في قمّة الجاهليّة، عربهم وعجمهم، وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم: (وإن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب وقال: إنما بعثتُك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أُحرق قريشًا، فقلت: ربّ إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزُهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك) .[٣]

وهذا الحديث عظيم الشأن طيب الكلم والمعنى، يقول ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث والأثر): "ومنه الحديث «أوحي إلي أن أحرق قريشا» أي أُهلكهم." فالأمر كناية عن القتل كما في الأثر الآخر (جئتكم بالذبح).

وقول النبي –عليه الصلاة والسلام– (إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة)؛ أي يشدخوه ويفتحوه يتركوه كالخبزة من شدة التحطيم لذلك الرأس الشريف، فهو –صلى الله عيله وسلم– يعرف أن الأمر له ضريبة، وله تضحية، فالأمر هو قول يتبعه عمل يُبرهن على صحة هذا القول وعلى صدق، أما الطنطنة الفارغة الجوفاء فهذه لا تسمن ولا تغني من جوع، فإن هذا الكلام من أولئك القوم الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل، وهم حملة ميراث الأنبياء والمرسلين!

والحديث كله –خاصّة الجزء الأخير– يدور في قالب الجهاد والقتال والإعداد والتنكيل بأعداء الله، فنحن لسنا أهل ذلّة ومسكنة ولسنا أهل ضعف وخنوع، بل العزة لنا وإن كنا ضعفاء وإن كنا في زمن المحنة، كما قال تعالى في كتابه:

---

[٨] صحيح مسلم (٢٨٦٥).

[٨] النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١\٣٧١).

{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ، ويقول تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ، والخطاب كان في زمن المحنة وفي زمن نزول الهزيمة على الصحابة، فرغم أن الهزيمة في رأسكم ورغم أنكم مستضعفون ماديًا ولكن أنتم الأعلون، ولكن بشرط: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وكما يستخرجنا هؤلاء الكفّار فنحن مأمورون باستخراجهم، بل مأمورون باستخراجهم استخراجًا أشدّ من استخراجهم لنا، ونحن مُطالَبون أن نُثخن فيهم القتل والتشريد والقتال، هم وأذنابهم وأعوانهم.

وهذا هو معنى قوله -عليه الصلاة والسلام-: (جئتكم بالذبح)؛ فنحن بُعثنا بالذبح، ولكن الذبح لأعداء هذا الدين ولكل من يقف عقبة في طريق تميكن لراية لا إله إلا الله؛ طاغوتًا أو من أعوان الطواغيت وأنصارهم، والدين لا يعرف المحاباة ولا ينبني بالطيبة والسذاجة والركعات والصلوات، لا؛ الدين دين قوة؛ {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} ، وسائر هذه الطاعات والقُربات -كما قال ابن القيم- لا تحق ولا تبطل الباطل، ولا تفرق بين من يأخذ الدين بقوة وبين من يأخذ من الدين القدر الذي يريحه ويستريح معه لا يكله تعب ولا نصب.

نقول وتلك الأمور العظيمة التي كانت كتوطئة أو كتمهيد لميلاده ﷺ ذكرها أهل السِّيَر في كتبهم، وأسهبوا في ذكر تفصيلاتها، إلّا أنّنا -وكما ذكرنا في المقدّمات- سنحاول قدر الإمكان أن لا نأخذ من الروايات إلا ما صحّ عند أهل الحديث، ونحن اشترطنا من قبل أن نتبع في عَرْضِنا لأحداث السيرة قوانين المحدّثين..

انـــــقـــطـــع الـصــــوت

[٨] سورة المنافقين، الآية: ٨.

[٨] سورة آل عمران، الآية: ٨٩.

[٨] سورة مريم، الآية: ١٢.

الفهرس